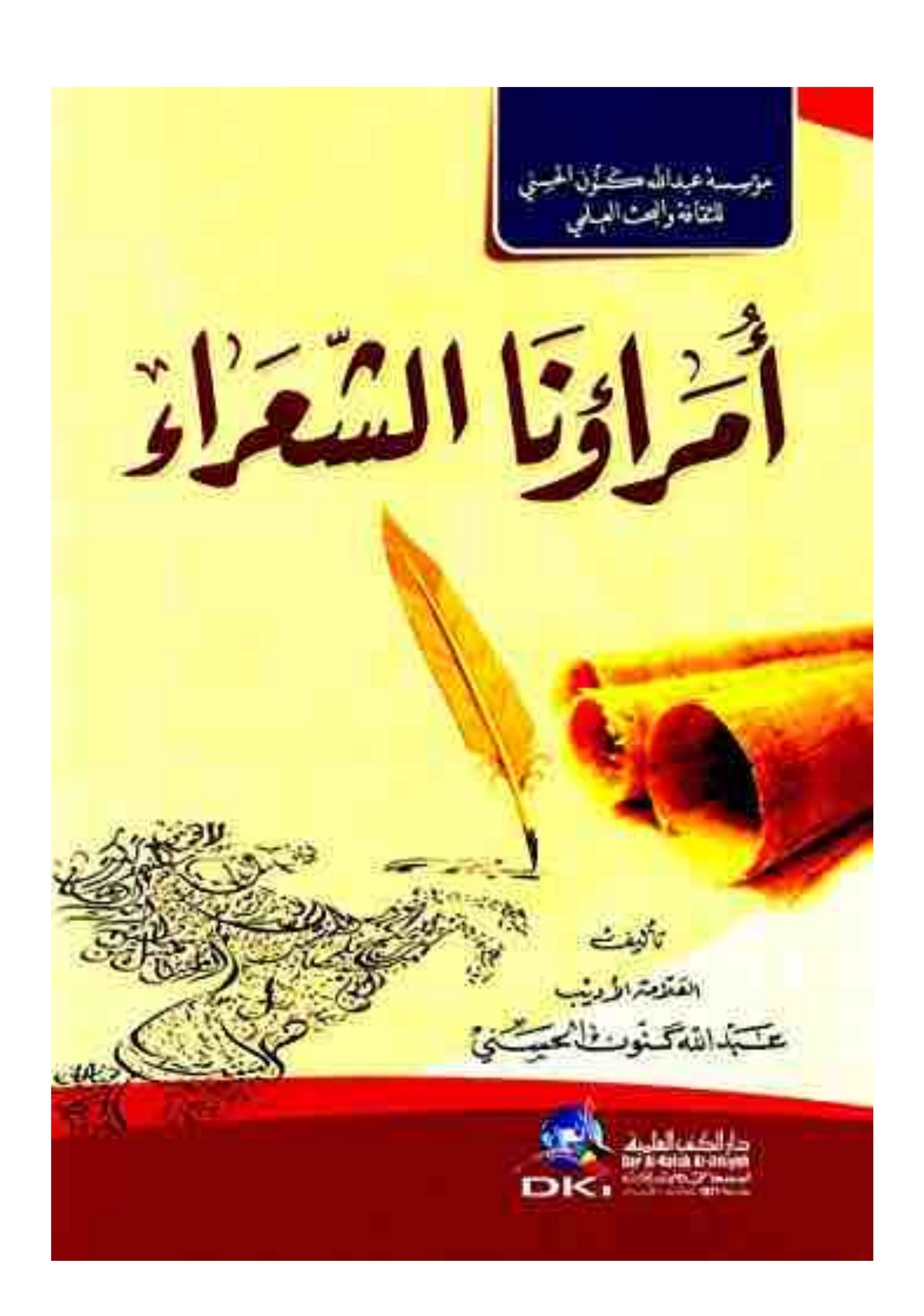

مؤسسة عبد الله كنون الحسني
للثقافة والبحث العلمي
أمراؤنا الشعراء
تأليف
العلامة الأديب
عبد الله كنون الحسني
دار الكتب العلمية
DKI

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

# مقدمة

يعجبني الموضوع ولو كان تافهاً إذا كان طريفاً لم يعرض بعد في السوق. ولا أكره إليّ من الموضوع المبتذل أقرأه فأحرى أنشئه ولذا فإني أفضل الكتابة القليلة مع الطرافة على الكتابة الكثيرة والابتذال.

وهذا الموضوع الذي بين يدي الآن، لا شك في طرافته فإنك لا تجد بين مجموعات الشعر الكثيرة، مجموعة تضم بين دفتيها شعر أمراء بلد من البلاد العربية كالمغرب مثلاً. وما صنعه الصولي من جمع شعر خلفاء بني العباس فهو خاص بشعر أمراء دولة واحدة من الدول العربية لا يشرك معها غيرها. حتى كان الخليفة المستنصر الأموي الأندلسي يود من يؤلف له في شعر خلفاء بني أمية مثل تأليف الصولي. وعلى ذلك فهو بخلاف موضوعنا هذا الذي يجمع شعر أمراء الدول المتعاقبة على المغرب كلها بدون تخصيص.

وأعظم فائدة متوخاة من عمل هذا المجموع أن يرى فيه، من لا زال لم يرَ، جانباً من الإنتاج الأدبي المغربي الخصب الصادر عن طبقة هي من أبعد الناس عن الكتابة والشعر وصناعة القلم على

العموم لأشغالها بمهام الرياسة، وشؤون السياسية، وحفظ الثغور، وضبط الأمور، وهي طبقة الأمراء. فلعله بعد ذلك يسلم بما لأبناء هذا القطر السعيد من النبوغ والعبقرية واستجماع أوصاف الكمال في كل مجال.

وإذا كانت أقوال الأمراء وأفعالهم أميرة الأقوال والأفعال فهذا شعرهم أمير الشعر. لما فيه من الأخيلة البديعة والمعاني، الرفيعة. والألفاظ المتخيرة، والأساليب المحررة، ولا تنسى قصة ابن الرومي الذي قيل له لم لم تقل كعبد الله بن المعتز.

**كَأَنَّ آذَرْيُونَنَا وَالشَّمْسُ فِيهِ كَالِيه**
**مَدَاهِنٌ مِنْ فِضَّة فِيهَا بَقَايَا غَالِيه**

فقال هو لا يقدر أن يقول مثل قولي في وصف الرقاقة.

**إنْ أَنْسَ لا أَنْسَ خَبَّازَ مَرَرْتُ بِهِ يَدْحُو الرَّقَاقَة وَشْك اللَّمْح بِالبَصَر**
**مَا بَيْنَ رُؤْيَتِهَا فِي الكَفِّ دَائِرَة وَبَيْنَ رُؤْيَتِهَا قَوْرَاء كَالْقَمَر**
**إِلَّا بِمِقْدَارِ مَا تَنْدَاحُ دَائِرَةٌ فِي صَفْحَةِ الماءِ يَرْمِي فِيهِ بِالْحَجَر**

قال وكل منا يصف أواني بيته - ففي هذه القصة تقرير لتلك النظرية وهي أن شعر الملوك في جوهره وعرضه غير شعر السوقة وأن بينهما ما بين الطبقين من التفاوت وقديماً حكم بهذا الإمام[1]

(1) نعني إمام الشعراء في وقته همام بن غالب التميمي المعروف بالفرزدق، فلا يظن القارئ أنه أحد أئمة الدين، وهذا من تلميحات الأدب. وللبيت قصة تطلب في مظانها.

همام حيث يقول:

**وَخَيْرُ الشِّعْر أَكْرَمُهُ رِجَالاً وَشَرُّ الشِّعْر ما قال العَبِيدُ**

ثم هذا لا ينفي أن يكون في بعض هذه الأشعار التي نرويها ضعف أو تخلف، فإن الأمراء على رفعة قدرهم كالناس، فيهم المصلي والمجلي، والموفي على الغايات والمستولي، ومن حسب الناس طبعاً واحداً فهو خلو من العلم براء من الذكاء.

وهذه هي الأشعار مرتبة بترتيب الدول، الأولى فالأولى والأمراء الأول فالأول، وبالله التوفيق وعليه المعول.

# الدولة الإدريسية

من شعر الإمام إدريس بن إدريس بن عبد الله رضي الله عنه يخاطب بهلول بن عبد الواحد المضغري، وكان من خاصته وأركان دولته فاستماله ابن الأغلب صاحب إفريقيا حتى بايع للرشيد:

أَبُهْلُول قَدْ حَمَّلْتَ نَفْسَك خُطَّة     تَبَدَّلْتَ مِنْهَا ضِلَّة بِرَشَاد

أَضَلَّك إِبْرَاهِيْم مَعْ بُعْد دَارِه     فَأَصْبَحْتَ مُنْقاداً بِغَيْر قِيَاد

كَأنَّك لَمْ تَسْمع بِمَكر ابن أَغْلَب     وَقِدما رَمَى بِالكَيْد كُلَّ بِلادِ

وَمِنْ دُونِ ما مَنَّتْك نَفْسكَ خَالِيا     وَمَنَّاك إِبْراهِيم شَوْك قَتَاد

وكان ابن الأغلب قد دس إلى راشد مولى إدريس الذي كفله منذ ولادته، من قتله غيلة وقال في ذلك:

أَلَمْ تَرَنِي بِالكَيْد أَرديْت راشِدا     وَإنِّي بِأُخْرَى لابْنِ إِدْرِيس رَاصِد

تَنَاوَلَهُ عَزْمِي عَلَى بُعْدِ دَارِهِ     بِمَخْتُومة يَحْظَى بِهَا مَنْ يُكَايِدِ

فهذا الذي يشير إليه مولانا إدريس من كيد ابن الأغلب ومكره.

وكتب إلى إبراهيم بن الأغلب يدعوه إلى طاعته والكف عن ناحيته ويذكر قرابته من الرسول ﷺ وفي أسفل كتابه:

أَتَذْكر إِبْرَاهِيْم حَقّ مُحَمَّد     وَعِتْرَتِهِ وَالحَقُّ خَيْرَ مَقُول

وَأَدْعُوهُ لِلأَمْرِ الَّذِي فِيهِ رُشْدُه ... وَمَا هُوَ لَوْلا رَأْيِهِ بِجَهُولِ
فَإِن آثَرَ الدُّنْيَا فَإِن أَمَامَهُ ... زَلازِلُ يَوْمٍ لِلْعِقَابِ طَوِيلِ

ومن شعره الذي يدل على كرم نفسه ولطف حسه:

لوْ مَدَّ صَبرِي بِصَبرِ النَّاس كُلِّهِم ... لِكُلِّ فِي رَوْعَتِي أَوْ ضَلَّ فِي جَزعِي
بِأَنَّ الأَحِبةَ فَاسْتَبْدَلْتُ بَعْدَهُم ... هَمًّا مُقِيماً وَشَمْلاً غَيْر مُجْتَمِع
كَأَنَّنِي حِينَ يُجرِي الفِكْرُ ذِكْرَهُم ... عَلَى ضَمِيرِي مَجْبُول عَلَى الفَزَعِ
تَأْوِي هُمُومِي إِذَا حرَّكَت ذِكرَهُم ... إِلى جَوَانِح جِسْمٍ دَائِمِ الهَلَعِ

هذه الأبيات وقع فيها اختلاف في اللفظ وزيادة تركناها لعدم انسجام المعنى بها. ومن اللطائف الأدبية ما حدث به داود بن القاسم بن عبد الله بن جعفر الأوروبي قال: شهدت مع إدريس بن إدريس بعض غزواته للخوارج الصفرية من البربر فلقيناهم وهم ثلاثة أضعافنا فلما تقارب الجمعان ترجل إدريس فتوضأ وصلّى ركعتين ودعا الله تعالى ثم ركب فرسه وتقدم للقتال، فقاتلناهم قتالاً شديداً فكان إدريس يضرب في هذا الجانب مرة ثم يكر في الجانب الآخر فلم يزل كذلك حتى ارتفع النهار فرجع إلى رايته فوقف بإزائها والناس يقاتلون بين يديه. فطفقت أنظر إليه وأديم الالتفات نحوه وهو تحت ظلال البنود يحرض الناس ويشجعهم فأعجبني ما رأيت من شجاعته وقوة بأسه. فالتفت نحوي فقال يا داود! ما لي أراك تديم النظر إليّ؟ قلت: أيها الإمام أنه أعجبني منك خصال لم أرها في غيرك قال: وما هي يا داود؟ قلت: أولها ما أراه من حسنك وجمالك وثبات قلبك

ومن طلاقة وجهك وما خصصت به من البشر عند لقاء عدوك قال: ذلك بركة جدنا رسول الله ﷺ ودعائه لنا وصلاته علينا وإراثة أبينا علي بن أبي طالب رضي الله عنه وكرّم وجهه قلت: أيها الإمام أراك تبصق بصاقاً مجتمعاً وأنا أطلب الريق في فمي فلا أجده قال: يا داود! ذاك لاجتماع عقلي وثبات جأشي، وعدم الريق من فيك لطيش لبك وافتراق عقلك ولما خامرك من الرعب. قال: فقلت أيها الإمام وأنا أيضاً أتعجب من كثرة تقلبك في سرجك وقلة قرارك في موضعك قال ذلك مني زعم للقتال وعزم وصرامة وهو أحسن في الحرب فلا تظنه رعباً ثم أنشأ يقول:

**أَلَيْسَ أَبُونَا هَاشِمٌ شَدَّ أَزْرَهُ وَأَوْصَى بَنِيْهِ بالطِّعَانِ وبِالضَّرْبِ**

**فَلَسْنَا نَمَلُّ الحَرْبَ حَتَّى تَمَلَّنا وَلا نَشْتَكي مِمَّا يَؤُوْلُ إِلَى النَّصَب**

**ولَكِنَّنَا أَهْلُ الحَفَائِظِ وَالنُّهَى إِذَا طَارَ أَرْوَاحُ الكُمَاةِ مِنَ الرُّعْب**

ولهذا الإمام أثار نثرية بليغة منها خطبته التي قالها بأثر مبايعته وهو ابن 11 سنة وهي:

الحمد لله أحمده وأستعينه وأستغفره وأتوكل عليه وأعوذ به من شر نفسي ومن شر كل ذي شر. وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله أرسله إلى الثقلين بشيراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ﷺ وعلى آل بيته الطاهرين الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً.

أيها الناس إنا قد ولينا هذا الأمر، الذي يضاعف للمحسن فيه الأجر، وللمسيء الوزر، ونحن والحمد لله على قصد جميل فلا

تمدوا الأعناق إلى غيرنا، فإن ما تطلبونه من إقامة الحق إنما تجدونه عندنا.

ولما فرغ من بناء مدينة فاس وحضرت الجمعة الأولى صعد المنبر وخطب الناس ثم قال: اللّهمّ إنك تعلم أني ما أردت ببناء هذه المدينة مباهاة ولا مفاخرة، ولا سمعة ولا مكابرة، وإنما أردت أن تعبد فيها ويتلى كتابك وتقام حدودك وشرائع دينك وسُنَّة نبيك محمد ﷺ ما بقيت الدنيا. اللّهمّ وفق سكانها وقطانها للخير وأعنهم عليه، وأكفهم مؤونة أعدائهم وأدر عليهم الرزق واغمد عنهم سيف الفتنة والشقاق إنك على كل شيءٍ قدير.

وللأمير القاسم بن إدريس، لما خرج عيسى بن إدريس على أخيه محمد، وكتب له محمد يأمره بحرب عيسى فامتنع وقال معتذراً عن ذلك:

سَأَتْرُك لِلرَّاغِبِ الغَرب نَهَبَا ... وَإِنْ كُنْتُ فِي الغَرْبِ قِيْلا وَنَدْبا

وَأَسْمُو إِلى الشَّرق فِي هِمَّة ... يَعِزُّ بِهَا رُتَبَا مَنْ أَحَبَّا

واتـرُك عِيْسَى علَى رَأْيِهِ ... يُعالِجُ فِي الغَرب هَمَّاً وَكَرْبا

وَلَوْ كَانَ قَلْبِي عَلَى قَلْبِهِ ... لَكُنْتُ لَهُ في القَرَابَةِ قَلْبَا

وَإِن أَحْدَثَ الدَّهْرُ مِنْ رَيْبِهِ ... شِقَاقا عَلَيْنا وأَحْدَثَ حَرْبَا

فَإِنِي أَرَى البُعْدَ سِتْراً لَنَا ... يُجَدِّدُ شَوْق لَدَيْنَا وَحُبَّا

وَلَمْ نَجْنِ قَطْعاً لِأَرْحَامِنَا ... نُلَاقِي بِهِ آخِرَ الدَّهْرِ عَتَبَا

وَتَبْقَى العَداوَة فِي عَقِبِنَا ... وأَكْرِم بِهِ حِيْنَ نعقِب عَقبَا

وأَوْفَـق مِـنْ ذَاكَ جَـوْبُ الـفَـلاةِ وقَـطْـعُ الـمَـخَـارِمِ نَـقْـبَا فَـنَـقْـبَا

وتعجبني هذه الأبيات ويسمو القاسم بها في نفسي سموا لا حد له فمن ناحية البلاغة أراها في الذروة العليا نصاعة لفظ ومتانة تركيب وانسجام معنى ومن ناحية القصد والغرض أراها تعبر عن نفس كبيرة وهمة عالية مترفعة عن سفاسف الحياة ومهازلها التي تقطع الأرحام وتجلب الموت الزؤام ويا ليت الأشراف كلهم كانوا كذلك.

ومعلوم أن القاسم كان والياً على طنجة من قبل أخيه محمد وأنه زهد في الولاية لما نشب النزاع بين أبناء إدريس وانقطع للعبادة رحمه الله ومن شعر إبراهيم بن إدريس المدعو الموبل وكان قد سكن قرطبة إلى أن أخرجه المنصور بن أبي عامر من الأندلس فيمن أخرجه من أهل بيته بعد قتل الحسن بن كنون كبيرهم وهذا قوله يخاطب المروانية ويهجو المنصور:

فِيمَا أَرَى عَجَباً لِمَن يَتَعجّب جَلَّت مُصِيبَتُنا وَضَاقَ الْمَذْهَب

إِنِّي لَأُكَذِّب مُقلَتِي فِيْمَا أَرَى حَتَّى أَقُول غَلِطْتُ فِيْمَا أَحْسِبَ

أَيَكُون حَيَّاً مِن أُمَيَّة وَاحِدُ وَبَسُوس هَذا المَلِك هَذَا الأَحْدَبُ

تَمْشِي عَسَاكِرَهُم حَوَالَي هُوْدَجٍ أَعْوَادُهُ فِيهِنَّ قِرْدٍ أَشْهَبُ

ابْنَي أُمَيَّة أَيْنَ أَقْمَار الدُّجَى مِنْكُم وَمَا لِوُجُوهِهَا تَتَغَيَّب

والعجب من علوي يمدح المروانية.

وله في هذا الوزن قصيدة طويلة يمدح بها مؤيد الدولة هذيل بن

خلف بن رزين صاحب القلاع يقول في أولها:

لِلسَّيفِ فِي تَعذِيب نَفْسِي مَذهَبٌ ... ولِنَائِبَات الدَّهْر عِنْدِي مَطلَب

أَمَّا دُيُون الحَادِثَات فَإِنَّها ... تَأْتِي لِوَقْتِ صَادِق لا تَكْذِب

أَيقَنت أني لِلرَّزَايا مَطْعَمٌ ... وَدَمِي لِوَافِدَةِ المَكارِه مَشْرَب

فَأَنَا مِن الآفَاتِ عرضٌ سَالِمُ ... وجوانِحُ تُكْوَى وَعَقْل يَذْهَبْ

# دولتا زناتة ولمتونة

لم يرو لنا التاريخ أثراً شعرياً عن أمراء هذين الدولتين ونظن أنه لم يصدر عنهم شيء من هذا القبيل لغلبة العجمة وعدم استقرار الأحوال في أيامهم حتى يتثقفوا ويتأدبوا.

ولكن بعض كلمات شاعرة تزري بقصائد طويلة أثرت عن بعضهم، ونحن نذكرها هنا رعياً للمناسبة وجمعاً للشوارد فمنها ما روي عن زيري بن عطية من أمراء الدولة الأولى وقد استدعاه المنصور بن أبي عامر لزيارة قرطبة، فسار إلى الأندلس وقدم بين يديه هدية عظيمة من جملتها طائر فصيح يتكلم بالعربية والبربرية، ودابة من دواب المسك ومهاة وحشية تشبه الفرس، وحيوانات غريبة، وأسدان عظيمان في قفصين من حديد، وشيء كثير من التمر في غاية الكبر الواحدة منها تشبه الخيارة عظماً، وحمل معه من قومه وعبيده ثلاثمائة فارس وثلاثمائة راجل فاحتفل المنصور لقدومه احتفالاً عظيماً وبرز الخاصة والعامة للقائه وأنزله بقصر جعفر الحاجب وتوسع له في الجرايات والإكرام ولقبه باسم الوزير وأفاض عليه أموالاً جساماً وعجل بسراحه إلى عمله بعد أن جدد له عهده على المغرب وعلى جميع ما غلب عليه منه.

فعبر البحر واحتل بمدينة طنجة فلما استقر بها وضع يده على رأسه وقال: الآن علمت أنك لي فاستقل ما وصله به المنصور واستقبح اسم الوزارة الذي سماه به ولقد خاطبه به بعض رجاله فنهاه عن ذلك وقال: وزير من يا لكع؟ لا والله إلا أمير ابن أمير! واعجبا لابن أبي عامر ومخرقته! لأن تسمع بالمعيدي خير من أن تراه. والله لو كان بالأندلس رجل ما تركه على حاله.

ومنها ما روي عن يدو بن يعلى من أمراء هذه الدولة أيضاً وقد استدعاه المنصور بن أبي عامر كما استدعى زيري وأنس يدو منه الغدر فلم يجبه وقال: متى عهد المنصور حمر الوحش تنقاد للبياطرة؟... ومنها ما روي عن أمير المسلمين يوسف بن تاشفين من ملوك دولة لمتونة وقد كتب إليه ألفونس السادس ملك قشتالة يهدده ويتوعده. وكان علم باستدعاء ملوك الطوائف له مستنجدين به عليه فأجابه كاتبه برسالة طويلة يرد عليه أقواله ومزاعمه. فلما قرأت على يوسف استطالها ووقع له على ظهر كتابه «الجواب ما ترى لا ما تسمع»، فعرف أنه بلي برجل يفعل ولا يقول. وعبر أمير المسلمين إلى الأندلس وأوقع بها واقعة الزلاقة المشهورة التي كتب بها للأندلس حياة جديدة في ظل الإسلام والعروبة قدر حياتها السابقة.

فهذه العبارات وإن لم تكن جارية على قانون الشعر ولا موزونة بعروضه فهي من معناه في الصميم. وما أحوج الشعراء إلى تناولها وعرضها كما يقتضي الفن، فإنهم يخرجون منها قصائد طنانة في الحماسة والفخر وعزة النفس والإباء.

نعم فإن للأمير أبي بكر بن إبراهيم المسوفي المعروف بابن تافوليت صهر علي بن يوسف بن تاسفين طبعاً أديباً رقيقاً وحيث أن مسوفة من صنهاجة التي إليها مرجع اللمتونيين وهو كان صهرهم ووالياً لهم على تلمسان وعلى سرقسطة فإنا نحلي ببعض شعره هذه الصحيفة ونجعله مسك الختام لهذه الدولة، قال في سيف هزه علي بن يوسف المذكور ارتجالاً:

**هَزَزْتُ حُسَاماً فَشَبَّهْتُهُ غَديراً مِنَ المَاءِ لَكِنْ جَمَد**
**فَلَمَّا بَدا لِي إفْرَنده لَهِيباً مِنَ النَّار لَكِن خَمَد**
**فَلَوْلَا الجُمُود وَلَولَا الخُمُود لَسَالَ لَدَى الهَزِّ أو لا تَّقَد**

وهو بديع لكن فيه حذف جواب لما ولا يتم حسنه إلا بتقديره.

# دولة الموحدين

من شعر داعبتهم القائم بأمرهم المهدي بن تومرت قوله:

أَخَـذْتُ بِـأَعْـضَـادِهِـم إذْ نَـأَوا   وَخَـلْـفُـكَ الـقَـوْم إِذ وَدَّعُـوا

فَـكَـمْ أَنْـتَ تَـنْـهى وَلا تَـنْـتَـهِي   وَتَـسْـمَـع وَعْـظـاً وَلَا تَـسْـمَـعُ

أَيَـا حَـجَـرَ الـسَّـنِّ حَـتَّـى مَـتَـى   تَـسِـنُّ الـحَـدِيـدَ وَلا تَـقْـطَـعُ

ومنه في عبد المؤمن نسبهما له في القرطاس وغيره:

تَجَمَّعت فِيكَ أَشْيَاءٌ خُصِصْتَ بِهَا   فَـكُـلُّـنَـا بِـكَ مَـسْـرُورٌ وَمُـغْـتَـبِطِ

الـسِّـنُّ ضَـاحِـكَـةُ والـكَـفُّ مَـانِـحَـةُ   والـصَّـدْرُ مُـتَّـسِـعٌ والـوَجْـهُ مُـنْـبَـسِط

والصواب أنه تمثل بهما فيه وهما لأبي الشيص الخزاعي. وكان المهدي أديباً كامل الأدوات مولعاً بشعر المتنبي. ولولا اشتغاله بتوطيد قواعد الملك لأني منه شاعر عبقري.

وله آثار نثرية من كتب وخطب معروفة ولعبد المؤمن بن علي أول خلفائهم الذي وحد أقطار الشمال الإفريقي والأندلس يستنفر العرب من بني هلال للجهاد:

أَقِيمُوا إِلَى العَلْيَاءِ هُوجَ الرَّواحِلِ   وَقُودُوا إِلَى الهَيْجَاءِ جُرْدَ الصَّوَاهِلِ

وَقُومُوا لِنَصْرِ الدِّينِ قَوْمَةَ ثَائِرٍ   وَشُدُّوا عَلَى الأَعْدَاءِ شَدَّةَ صَائِلِ

فَمَا العِزُّ الأَظْهَرُ أَجْرَد سَابِحٌ        يَفُوتُ الصَّبَا فِي شَدِّهِ المُتَوَاصِلِ
وَابْيَض مَأْثُور كَأَنَّ فِرِنْدَه        عَلَى المَاءِ مَنْسُوجٌ وَلَيْسَ بِسَائِلِ
بَنِي العَمِّ مِنْ عَلْيَا هِلَالِ بْنِ عَامِرِ        وَمَا جَمَعَتْ مِنْ بَاسِلٍ وابنِ بَاسِلِ
تَعَالَوْا فَقَدْ شُدَّتْ إِلَى الغَزْونِيَّة        عَوَاقِبُهَا مَنْصُورة بِالأَوَائِلِ
هِيَ الغَزْوَة الغَرَّاء والمَوْعِد الَّذِي        تَنَجَّزَ مِنْ بَعْدِ المَدَى المُتَطَاوِلِ
بِهَا يَفْتَحُ الدُّنْيَا بِهَا يَبْلُغُ المُنَى        بِهَا يُنْصِفُ التَّحْقِيقِ مِنْ كُلِّ بَاطِلِ
أَهَبْنَا بِكُم لِلخَيْرِ واللهُ حَسْبُنَا        وَحَسْبُكُم والله أَعْدَل عَادِلِ
فَمَا هَمُّنَا إلا صلاحِ جَمِيعُكُم        وَتَسْرِيحُكُم فِي ظِلِّ أَخْضَر هَاطِلِ
وَتَسْوِيغُكُم نِعَمِي تَرِفُّ ظِلَالُهَا        عَلَيْكم بِخَيْر عَاجِلٍ غَيْرِ آجِلِ
فَلَا تَتَوانَوا فَالبِدَارُ غَنِيمَةٌ        وَلِلْمُدْلِجِ السَّارِي صَفَاءُ المَنَاهِلِ

ولا يخفي ما فيه من متانة ورصانة وما يدل عليه من قوة نفس، وشدة بأس، مع حسن السياسة وحكمة التدبير وليس ذلك بغريب من عبد المؤمن.

قال في المعجب وأخبرني السيد[1] حقيقة والماجد خلقاً وخليقة أبو زكرياء يحيى بن الإمام أمير المؤمنين أبي يعقوب بن الإمام أمير المؤمنين أبي محمد عبد المؤمن بن علي أنه رأى على ظهر كتاب الحماسة بخط الخليفة عبد المؤمن بن علي هذين البيتين وقال لي

(1) كان لفظ السيد في أيام الموحدين خاصاً بالأمراء من ولد عبد المؤمن فلهذا يقول فيه السيد حقيقة.

رحمه الله لا أدري هما له أو لغيره:

**وَحَكِّم السَّيَف لَا تَعْبأ بِعَاقِبة وَخَلْها سِيرَة تَبْقى عَلَى الحُقَب**

**فَمَا تَنَال بِغَير السَّيف مَنْزِلة وَلَا تَرُد صُدُور الخَيْل بِالكُتُب**

ونحن نقول أنهما إن لم يكونا له فما أشفهما عن نفسه وأصدقهما تعبيراً عن حقيقته.

وله المساجلة المشهورة بينه وبين وزيره أبي جعفر بن عطية لما كانا مارين ببعض طرق مراكش فأطلت من شباك جارية بديعة الجمال تبتدر النظر إلى الخليفة فقال:

**قَدَّتْ فُؤَادِي مِنَ الشُّبَّاكِ إِذْ نَظَرَت**

فأجاب الوزير:

**حَوْراء تَرْنُو إِلَى العُشَّاق بِالمُقَلِ**

فقال عبد المؤمن:

**كأَنَّمَا لَحْظها فِي قَلْبِ عَاشِقِهَا**

وأجاب الوزيرُ أيضاً:

**سَيْف المُؤيَّد عَبْد المُؤمِن بْنِ عَلِي**

وكان عبد المؤمن مغرماً بالأدب شغوفاً بالشعر بصيراً بجيده نقادة لرديئة. فلما كان بجبل الفتح وهو جبل طارق سماه بهذه التسمية الشعرية عبد المؤمن نفسه، ووفدت عليه وجوه أهل الأندلس ورؤساؤها للبيعة ـ جلس للناس في يوم مشهود فقال الشعراء في ذلك قصائد فذة. قال: في المعجب وأنشده في ذلك اليوم رجل من

ولد الشريف الطليق المرواني، كان شريفاً من جهة أمه:

**مَـا لِـلْـعِـدا جُـنَّـة أوقـى مـنَ الـهَـرَب**

فقال عبد المؤمن رافعاً بها صوته إلى أين؟ فقال الشاعر:

**أَيْـنَ الـمَـفَـرُّ وَخَـيْـل الله فِـي الـطَّـلَـب**

... وأنشده في ذلك اليوم رجل من أهل إشبيلية يعرف بابن سيد ويلقب باللص:

**غَمِّض عَنِ الشَّمْسِ واستقصِي مَدَى زُحَل**

**وانظُر إلى الجَبَل الرَّاسِي عَلَى جَبَل**

**أَنـى اسْـتَـقَـرَّ بـه أنـى اسْـتَـقَـلَّ بـه**

**أنى رَأَى شَخْصَهُ العَالِي فَلَمْ يَزَل**

فقال له عبد المؤمن لقد أثقلتنا يا رجل!

ولما قتل وزيره أبا جعفر بن عطية امتحن الشعراء بهجوه فلما أسمعوه ما قالوا أعرض عنهم وقال ذهب ابن عطية وذهب الأدب معه.

فهذه أقوال كلها تدل على ما لعبد المؤمن من ذوق أدبي راقٍ، وملكة نقدية راسخة. وتعجبني واقعة حال جرت له مع وزيره أبي جعفر المذكور وهي وإن لم يكن فيها شعر فإن فيها تخييلاً شعرياً جميلاً ينم عن ميول كل من هذين الشخصيتين الأدبية، وهي ما حكاه أبو جعفر قال:

دخلت على عبد المؤمن وهو في بستان له قد أينعت ثماره، وتفتحت أزهاره، وتجاوبت على أغصانها أطياره، وتكامل من كل

جهة حسنه وهو قاعد في قبة مشرفة على البستان فسلمت وجلست وجعلت أنظر يمنة ويسرة متعجباً مما أرى من حسن ذلك البستان فقال لي يا أبا جعفر أراك تطيل النظر إلى هذا البستان. قلت يطيل الله بقاء أمير المؤمنين والله إن هذا المنظر حسن. فقال: يا أبا جعفر المنظر الحسن هذا؟ قلت: نعم، فسكت عني.

فلما كان بعد يومين أو ثلاثة أمر بعرض العسكر آخذي أسلحتهم وجلس في مكان مطل وجعلت العسكر تمر عليه قبيلة بعد قبيلة، وكتيبة إثر كتيبة لا تمر كتيبة إلا والتي بعدها أحسن منها جودة سلاح وفراهة خيل وظهور قوة.

فلما رأى ذلك التفت إليّ وقال: يا أبا جعفر، هذا هو المنظر الحسن لأثمارك وأشجارك! وأخباره في قوة الحساسية وتوقد الشعور كثيرة معروفة.

ولابنه الأمير أبي عمران، وكان استخلفه أخوه يوسف على مراكش فاعتل وغاب ثلاثة أيام لم يره أحد، فكتب إليه القاضي أبو يوسف حجاج:

**يَغِيبُ البَدْرُ يَوْماً ثُمَّ يَبْدُو ... وَأَنْتَ تَغِيبُ عَن عَيْنَيَّ ثَلاثَا**

**لَئِنْ بَلَغْتُ ثَلاث لَا أَرَاكُمْ ... فَلَسْتُ بِمُدْرِكٍ يَوْم الثُّلَاثَا**

فأجابه الأمير أبو عمران بديهة:

**أَتَتْنَا مِنكُم دُرَرٌ فَجَلَت ... عِجَالِي أَوْجَبَت مِنا انْبِعَاثَا**

**وَلَوْلَا العُذْرُ مِنْ سَبَبٍ قَوِيٍّ ... لَسِرْنَا نَحْوَكُم عَزْما حِثَاثَا**

وَلَـكِـنَّـي أَسِـيـر بِـحَـالِ وِدِّ إِلَـيْـكُـم مُـصْـبِـحـاً يَـوْمَ الـثَّـلاثَـا

وكان هذا السيد من نجباء أبناء عبد المؤمن وفضلائهم نقل في المعجب هذه الحكاية من خط يديه عن والده عبد المؤمن أنه مر في طريقه بين البطحاء[1] وتلمسان عند قفوله من إفريقيا[2] بموضع قد التف فيه الدوم فجاء منه دوحة عظيمة في وسطها رحبة نقية فأمر أن يضرب خباؤه هنالك وهو غير منزل معروف فلما نزل ونزلت العساكر واستقر بهم النزول قال لبعض خواصه أتدرون لم أثرت النزول بهذا المكان؟ قالوا: لا. قال: ذلك لأني بت بهذا الموضع في بعض الليالي جائعاً مقروراً وكانت ليلة ممطورة فما زال هذا الدوم وقائي حتى أصبحت فأردت النزول هنا على هذه الحالة لأشكر الله سبحانه على الفرق ما بين المنزلتين والفصل ما بين المبيتين. ثم قام فتوضأ وصلّى ركعتين شكراً لله عزَّ وجلَّ.

أوردت هذه الحكاية لزيادة التعريف بكاتبها إذ كان مجهول الترجمة تقريباً.

ومن شعر يعقوب المنصور واسطة عقد خلفائهم الذي أغنى ذكره عن التعريف به يخاطب العرب وقد لفوا لفهم مع ابن غانية وقرقوش مولى بني أيوب في الشغب عليه بإفريقيا:

يَـا أَيُّـهـا الـرَّاكِـبُ الـمُـزجِّـى مَـطِـيَّـتُـهُ

عَـلَـى غَـدَائِـرِه تَـشْـقَـى بِـهَـا الأكَـم

(1) هي مدينة بقرب شلف جددها عبد المؤمن بعد الخراب فكانت تنسب إليه.

(2) يعني تونس.

بَلِّغ سُلَيما عَلَى بُعْدِ الدِّيَارِ بِهَا
بَيْنِي وَبَيْنَكم الرَّحْمَن والرَّحِم

يَا قَوْمَنا لَا تُنْشِبوا الحَرْبَ إن خَمَدَت
واسْتَمْسِكوا بِعُرى الأَيْمَانِ واعْتَصِمُوا

كَمْ جَرَّبَ الحَرْب مَن قَد كَانَ قَبْلَكْم
مِن القُرُونِ فَبَادتْ دُونَهَا الأُمَم

حَاشَ الأَعَارِبُ أَن تَرْضَى بِمَنْقَصَة
يَا لَيْتَ شِعْري هَل تَرَاهُم عَلِمُوا

يَقُودُهُم أَرْمَني[1] لا خَلَاقَ لَهُ
كَأَنَّهُ بَيْنَهم مِن بَيْنِهم عَلَم

اللهُ يَعْلَمُ أَنِّي مَا دَعَوْتُكُم
دُعَاءَ ذِي قُوَّةٍ يَوماً فَيَنْتَقِم

وَلَا لِجَأْتُ لأَمْر يُسْتَعَانُ بِهِ
مِنَ الأُمورِ وَهَذا الخُلُق قَدْ عَلِمُوا

لَكِنْ لِأَجْزِي رَسُول الله عَنْ نَسَبِ
يُنْمي إِلَيْهِ وتَرْعَى تِلْكُمُ الذِّمَم

فَإِنْ أَتَيْتُم فَحَبْلُ الوَصْلِ مُتَّصِلُ
وَإِنْ أَبَيْتُم فَعِنْد السَّيْف نَحتَكِم

---

(1) هو قرقوش المشار إليه.

وكان المنصور فوق أعماله الخالدة عالماً أديباً وخطيباً مفوهاً له فتاوي فقهية مبنية على الاجتهاد وكتاب في الحديث سماه الترغيب، وإذا أراد غزوا تولى بنفسه تحريض الجيش بالخطب الحماسية والكلمات المؤثرة، وكان يحب الشعر ويثيب على المدح كثيراً إلا ذات مرة لما رجع من غزوة الأرك الشهيرة أخت الزلاقة في العظمة، فورد عليه وفود المهنئين والشعراء من كل جهة فكان كل واحد منهم ينشد من قصيدته بيتاً أو بيتين لكثرتهم وبترك رقعتها أمامه، فما استتموا الإنشاد حتى حالت رقاع القصائد بينه وبين الناس ولم يجز أحداً حينئذٍ وقال: «منع الجميع أرضي للجميع».

وله مثل هذه كل كلمة بليغة تطبق المفصل ولا تترك بعدها لقائل مقالاً، فمنها أن ألفنس تهدده قبل عبوره لوقعة الأرك المذكورة فمزق كتابه وقال لرسوله: ﴿ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ۝٣٧﴾ [النمل: 37] إن شاء الله ثم وقع له على قطعة من كتابه الممزق: «الجواب ما ترى لا ما تسمع».

**فَلَا كُتُبَ إِلا الـمُشَـرَّفِيَّة والقَنَـا وَلا رُسُـلَ إِلا الـخَـمِيـسِ الـعَـرَمْـرَمِ**

ومنها أن قوماً من بلاد السودان أهدوا إليه فيلاً فأمر لهم بصلة ولم يقبله منهم وقال: «نحن لا نريد أن نكون أصحاب الفيل».

وطلب من بعض أعيان دولته رجلين لتأديب ولده يكون أحدهما براً في عمله والآخر بحراً في علمه فجاءه بشخصين زعم أنهما على وفق مراده، فلما اختبرهما لم يجدهما كما وصفا فكتب إلى الآتي بهما: (ظهر الفساد في البر والبحر) وناهيك بهذا دليلاً على قوة فطنته ومعرفته.

ومما يدل على نضجه الأدبي أن الشاعر المجيد أبا بكر ابن مجبر أنشد والده يوسف بن عبد المؤمن قصيدة يهنيه فيها بفتح منها:

**إن خَبَرَ الفُتُوحِ مَا جَاءَ عَفْواً　　مِثْلَمَا يَخْطُب الخَطِيبُ ارْتِجَالَا**

وكان أبو العباس الجراوي الشاعر حاضراً فقطع عليه قوله وقال: يا سيدنا اهتدم بيت وضاح:

**خَيْرُ شرَابٍ مَا كَانَ عَفْواً　　كَأَنَّهُ خُطْبَةَ ارْتِجَال**

فبدر يعقوب المنصور وهو حينئذٍ وزير أبيه وسنه قريب العشرين وقال إن كان اهتدمه فقد استحقه لنقله إياه من معنى خسيس إلى معنى شريف.

فسر أبوه بجوابه وعجب الحاضرون.

وأقواله في هذا الباب كثيرة.

ومن شعر الأمير أبي الربيع سليمان بن عبد الله بن عبد المؤمن قصيدة يمدح فيها ابن عمه يعقون المنصور:

**هَبَّت بِنَصْرِكُمْ الرِّيَاحُ الأَربَع　　وَجرَتْ بِسَعْدِكُمْ النَّجُوم الطلع**

**واسْتَبْشَر الفُلْك الأَثِيرُ تَيَقُّناً　　أَنَّ الأُمُورَ إِلَى مُرَادِكَ تَرجِع**

**وَأَمدَّكَ الرَّحمَن بِالفَتحِ الَّذِي　　مَلأَ البَسِيطَة نُورُها المُتَشَعْشِع**

**لِمَ لَا وَأَنتَ بَذَلْتَ فِي مَرْضَاتِهِ　　نَفْساً تَفْدِيها الخَلَائِقُ أَجْمَع**

**وَمَضَيت فِي نَصْرِ الإِلهِ مُصَمِّماً　　بِعَزِيمَةٍ كَالسَّيْفِ بَلْ هِيَ أَقْطَع**

**وَكَتَائِبُ مَنْصُورة يَحْذُو بِهَا　　عَزم إِذَا أَمْضَيْتَهُ لا يَرْجِع**

مُلِئَتْ بِهَا أَرجاءَ كُلِّ تَنُوفَةٍ     حَتَّى حَسِبْنَا أَرْضَهَا تَتَصَدَّع
مِنْ كُلِّ مِن تَقْوى الإِلَه سِلَاحُه     مَا إِنَّ لَهُ غَيْر بِالتَّوَكُّلِ مَفْزَع
لَا يُسْلِمُونَ إِلَى النَّوازِلِ جَارَهُم     يَوْماً إِذا أَضْحى الجِوَار يضيع
لِلَّهِ جَأْشُك والصَّوَارِمُ تَنْتَضِي     والخَيْلُ تَرْدى والأَسِنَّة تَشْرَع
كَمْ مِنْ قُصَي الدَّار عَاصٍ قَادَه     حَتْفٌ يَخِبُّ بِهِ إِلَيْكَ وَيُوضَع
إِن ظَنَّ أَنَّ فِرَارَه مُنْجٍ لَهُ     فَبِجَهْلِه قَد ظَنَّ مَا لَا يَنْفَع
أَيْنَ المَفَرُّ وَلَا فِرَارَ لِهَارِبٍ     وَالأَرْضُ تَنْشُر فِي يَدَيْك وَتَجْمَعْ
أَخَلِيْفَةُ اللهِ الرضى هَنَيْتَهُ     فَتْحاً يَمُدُّ بِهِ سِوَاهُ وَيَشْفَع
فَلَقَد كَسَوْت الدِّين عِزّاً شَامِخاً     وَلَبِسْتَ مِنْهُ أَنْتَ مَا لَا يُخْلَع
هَيْهَاتَ سِرُّ اللهِ أُودع فِيكُم     وَالله يُعْطِي مَن يَشَاءُ وَيَمْنَع
لَكُمُ الهُدَى لا يَدَّعِيه سِوَاكُم     ومَنِ ادَّعَاه يَقُول مَا لَا يَسْمَع
إِنْ قِيل مَن خَيْر الخَلَائِق كُلِّهَا     فَإِلَيْك يَا يَعْقُوب تُومِي الإِصْبَع
إِن كُنْتَ تَتْلُو السَّابِقِين فَإِنَّما     أَنْتَ المُقَدَّم وَالخَلَائِقُ تَبَع
خُذْها أَمِير المُؤمِنِين مَدِيحَة     مِنْ قَلْب صِدْقٍ لَم يُشِنْه تَصَنع
وَاسْلَم أَمِيرَ المُؤمِنِين لأُمَّةٍ     أَنْتَ المَلَاذُ لَهَا وَأَنْتَ الفَزَع
فَالمَدْحُ مِنِّي فِي عُلَاك طَبِيعَة     والمَدْحُ مِن غَيْرِي إِلَيْكَ تَطَبَّع
وَعَلَيْكَ يَا عَلَمَ الهُدَاةِ تَحَيَّة     يَفْنَى الزَّمَانُ وَعَرْفُها يَتَضَوَّع

وكتب إليه وهو بحال هجر منه وكانت وفدت عليه وفود العرب

والغز من بلاد المشرق واستأذنوا في الدخول عليه.

يَا كَعْبَةَ الجُودِ الَّتِي حَجَّت لَهَا   عَرَبُ الشَّام وَغُزُّهَا والدَّيْلَم

طُوبَى لِمَن أَمْسَى يَطُوف بِهَا غَدَا   وَيَحِل بِالبَيْتِ الحَرَام وَيَحْرَم

وَمِنَ العَجَائِبِ أَنْ يَفُوزَ بِنَظْرَةٍ   مَن بِالشَّامِ وَمَن بِمَكَّة يُحْرَم

فعفا عنه وأحسن إليه وأمره بالدخول بهم والتقدم عليهم.

وله في جارية اسمها ألوف:

خَلِيلَيَّ قُولا أَيْنَ قَلْبِي وَمَن بِهِ   وَكَيْفَ بَقَاءُ المَرْءِ مِنْ بَعْدِ قَلْبِهِ

وَلَو شِئْتُما اسْم الَّذي قَد هَوَيْتُه   تَصَحَّفْتُما أَمري لَكُم بَعْدَ قَلْبِهِ

وله في النسيب:

أَقُولُ لِرَكْبٍ أَدْلَجُوا بِسَحِيْرة   قِفُوا سَاعَة حَتَّى أَزُور رِكَابَها

وامْلأَ عَيْنِي مِنْ مَحَاسِن وَجهِهَا   وَأَشْكُو إِلَيْهَا إِن أَطَالُتْ غِيَابَها

فَإِن هِيَ جَادَت بِالوِصَال وَأَنْعَمت   وَإِلا فَحَسْبِي إِن رَأَيْتُ قِبَابَهَا

وَقَفْتُ بِهَا أَشْكو وَأَسْكُب عَبْرَة   عَلَى غَيْر بَيْن مَا عَلِمْتُ انْسِكَابهَا

فَأَوْمَت بِرَخص مِنْ بَنَان مُخَضَّبٍ   وَحَطَّت عَنِ البَدْرِ المُنِير نَقَابَها

وَقَالَتْ أَيَبْكِي البَيْنُ مَن قَدْ أَرَادَهُ   وَيَشْكُو النَّوَى مَن قَد أَثَار غُرَابَهَا

وَلَمَّا تَنَاءَتِ دَارها وَتَبَاعَدَت   وَعَاقَتْ عَلَى بُعْدِ المَزَار خِطَابَها

كَتَبْتُ إِلَيْها أَشْتَكي أَلَمَ النَّوَى   لَعَلِّي أَرَى يَوماً إِلَيَّ كِتَابَها

وَكُنْتُ أَرَى أَنَّ الجَوَاب تَعلَّل   فَقَد زَادَ مَا بِي أَن رَأَيْتُ جَوَابَها

وله في الطيف:

يَـا أَيُّـهَـا الـطَّـيْـفُ خَـبِّر مَـا لِـلْـحَـبِـيـبِ لَـدَيْـنَـا
وأقْـرِ السَّـلام عَـلَـيَـهِ مِـنَّـا وَمِـنْـه إِلَـيْـنَـا
وَقُـلْ لَـهُ غَـابَ قَـلْـبِي وَأَنْـتَ تَـعْـلَـم أَيْـنَـا
فَـارْدُد عَـلَـيّ فُـؤادِي يَـا أَمْـطَـلَ الـنَّـاسِ دَيْـنَـا

وله في صفة الروض والحث على الشراب:

تَـنَـبَّه تَـرَى دِيـمَـةً تُـمْـطِـر وَوَجْـهُ الـصَّـبَاحِ لَـنَـا يُـسْـفِـر
وَكَـالـنَّـدِّ لَـكِـن كَـافُـوره بَـدَا فـيـه واكـتَـتَـمَ الـعَـنْـبَرَ
عَـلَـى حِـيـن فَـلَّ الـدُّجَـى مُـدْبِر وَلِـلـصُّـبْح فِـي أَثَـرِه عَـسْـكَـر
وَبَـيْـنَ الـغَـمَـامِ وَمَـمْـطُـورِه مِـنَ الـرَّوضِ كَـالـحَـرَبِ أَوْ أَكْـثَـر
إِذَا الـتَـاحَ مـن بَـرْق ذَا أَبْـيَـض تَـأَطَّـر مِـن غُـصْـن ذَا أَسْـمَـر
وَالْـمُـقَـطَّـر فِـي جِـيَـدِ غَـضٍّ الـنَّـقَـا لآل مِـنَ الـمَـاءِ أَو جَـوْهَـر
وَفِـي عَـاتِـق الـرَّوْضِ مِـن سَـيْـفِـه نِـجَـاد وَلَـكِـنَّـه أَخْـضَـر
كَـأَنَّ الـرَّذَاذ عَـلَـى زَهْـرِهِ يَـفِـت مِـنَ الـسُّـكْـر أَو يُـنْـثَـر
وَمَـا عَـبَق الـرَّوْض طِـيـباً لَـنَـا وَلَـكِـنَّـه لِـلْـحَـيَـا يُـشْـكَـر
تَـنَـبَّه إِلَـى شُـرْب مَـشْـمُـولَـة يَـطُـوف عَـلَـيْـنَـا بِـهَـا جُـؤذَر
يَـدُلُّ صَـفَـاهَـا وَإِشْـرَاقَـهَـا عَـلَـى أَنْ مِـن خَـدِّه تُـعْـصَـر
فَـيَـا عَـاشِـقَـيـن عَـلَـى رِسْـلِـكُـم مِـنَ الـشُّـرْبِ سَـاقِـيـكُـم أَحْـوَر

مَتَى تَسْتَفِيقُونَ مِن سُكْر مَن إِذَا فَنِيَت خَمْرُه يُنْظِر

وله في فسقية:

انْظُر إِلَيْها وَقَد سَالَت جَوَانِبُها بِالمَاء سَيْلاً خَفِيفاً دَمْعُه يَكِف

كَأَنَّها مُقْلَتِي يَوْمَ الوَدَاع وَقَد لَاحَ الرَّقِيب فَلَا تَجْرِي وَلَا تَقِف

وله في التوبة والدعاء:

إِذَا مَا ذَكَرْتُ الله فَاضَت مَدَامِعِي

عَلَى كُلِّ مَا فرطت فَيْض السَّحَائِب

وَذِكْرُ يَوْم الحَشْر إن جِئْتَه غَدَا

وَذَنْبِي مَعِي والذَّنْب أَخْبَث صَاحِب

وَلَكِن أَرْجِي الله فِي كُلْ حَالَة

وَأَخْشَى بِمَا قَدَّمْت سُوء العَوَاقِب

فَيَا خَيْر مَن يُدْعى لِكُلِّ مَلَمَّة

وَأَكْرم مَن يُرْجى لِنَيْل الرَّغَائِب

أَقِل عَثْرتي إِنِي أَتَيْتُك تَائِباً

وَلَيْس مُقِيم فِي الذُّنُوب كَتَائِب

أبو الربيع هذا كان والي بجاية ثم سجلماسة وهو نابغة بني مؤمن لم يكن فيهم مثله في هذا الشأن كما قال صاحب المغرب وكان كاتباً شاعراً أديباً ماهراً وشعره مدون جمعه كاتبه ابن عبد ربه المالقي وله مختصر الأغاني.

ومن آثاره النثرية رسالة إلى ملك السودان ينكر عليه تعويق التجار:

«نحن نتجاوز بالإحسان وإن تخالفنا في الأديان ونتفق على السيرة المرضية ونتألف على الرفق بالرعية ومعلوم أن العدل من لوازم الملوك في حكم السياسة الفاضلة والجور لا تعانيه إلا النفوس الشريرة الجاهلة وقد بلغنا احتباس مساكين التجار ومنعهم من التصرف فيما هم بصدده وتردد الجلابة إلى البلد مفيد لسكانها ومعين على التمكن من استيطانها ولو شئنا لاحتبسنا من في جهتنا من أهل تلك الناحية، لكنا لا نستصوب فعله، ولا ينبغي أن ننهي عن خلق ونأتي مثله والسلام».

ووقع إلى عامل له كثرت الشكاوي منه: «قد كثرت فيك الأقوال، وإغضائي عنك رجاء أن تتيقظ فتنصلح الحال، وفي مبادرتي إلى ظهور الإنكار عليك نسبة إلى شر الاختيار، وعدم الاختبار، فاحذر فإنك على شفا جرف هار» إلى غير هذا من محاسنه وقد أوعينا في ترجمته في (الذكريات).

وللأمير أبي الحسن علي بن عمر بن أمير المؤمنين عبد المؤمن يمدح المنصور ويطلب منه ما يقضي به ديونه:

**وُجُـوه الأَمَـانِـي بِـكُـم سَـفَـرَه وَضَـاحِـكَـة لـي مُـسْـتَـبْـشِـره**

**وَلِـي أَمَـل فِـيـكُـم صَـادِق قَـرِيـب عَـسَـى الله أَنْ يَـسَّـرَه**

**عَـلَـيّ دُيُـون وَتَـصْـحِـيـفـهـا وَعِـنْـدَكُـم الـجُـود وَالـمَـغْـفِـره**

يعني ذنوب قال التاج ابن حموية السرخسي في رحلته حدثني الشيخ أبو الحسن بن فشتال الكاتب وقد أنشدته:

**أَوْحَشْتَنِي وَلَو اطَّلَعْتُ عَلَى الَّذي لَكَ فِي ضَمِيري لَم تَكُن لِي وَحِشَا**

فقال: أنشدت هذا البيت في مجلس السيد أبي الحسن فقال لي ولمن حضر هل تعرفون لهذا البيت ثانياً؟ فما فينا من عرفه فأنشدنا:

**أَترى رشِيتَ عَلَي اطْراحَ مَوَدَّتِي وَلَقَدْ عَهِدْتُكَ لَيْسَ تُثْنِيك الرَّشَا**

أوحشتني البيت.

وقال في المغرب كان هذا السيد أبو الحسن قد ولى مملكة تلمسان وبجاية وله حكايات في الجود برمكية ونفس عالية زكية كتب إليه السيد أبو الربيع يوم جمعة:

**اليَومَ يومُ جُمُعَه يَومُ سُرُورٍ وَدَعَه**
**وَشَمْلُنا مُفْتَرِق فَهَل تَرَى أَنْ نَجْمَعَه**

فأجابه بقوله:

**اليَوم يوم الجُمُعَه وَرَبُّنَا قَد رَفَعَه**
**والشُّرْبُ فِيه بِدْعَه فَهَل تَرَى أَن نَدَعَه**

قال ولفظة السيد في المغرب بذلك العصر لا تطلق إلا على بني عبد المؤمن بن علي.

وللسيد عبد الله صاحب فاس من أبيات في الفخر وقد انتحله غيره:

أَلَسْتُ ابن مَن تَخْشَى الليَالِي انْتِقَامُهم
وَتَرْجُو نَدَاهُم غَادِيَات السَّحَائِب
يَخْطُون بِالخُطَى فِي حَوْمَةِ الوَغَى
سُطُور المَنَايَا فِي نُحُور المَقَانِب
وَمَا كُنْتُ أَدْرِي قَبْلَهم إن مُعْشَرا
أَقَامُوا كِتَاباً مِن نُفُوس الكَتَائِب

ومن شعر خليفتهم المأمون بن المنصور عند إيقاعه بأشياخ الموحدين وتعليق رؤوسهم بأسوار مراكش وأشجارها:

| | |
|---|---|
| أَهْلُ الحَرَابَةِ وَالفَسَادِ مِنَ الوَرَى | يَعْزُون فِي التَّشْبِيه المِذْكَارِ |
| فَفَسَادُهُ فِيه الصَّلَاحَ لِغَيْرِهِ | بِالقَطْع والتَّعْلِيق فِي الأَشْجَارِ |
| فَرُؤوسُهُم ذِكْرَى إِذَا مَا أَبْصَرَت | فَوْقَ الجُذُوع وَفِي ذَرَى الأَشْجَارِ |
| وَكَذَا القَصَاص حَيَاة أَرْبَاب النُّهى | وَالعَدْل مَألُوف بِكُلِّ جَوَارِ |
| لو عَمَّ حِلْمُ الله سَائِرَ خَلْقِه | مَا كَانَ أَكْثَرُهُم مِن أَهْلِ النَّارِ |

ولما نتنت وتأذى الناس برائحتها رفع إليه ذلك فقال: إن هاهنا مجانين وأن تلك الرؤوس حروزهم لا يصلح حالهم إلا بها. وإنها لعطرة عند المحبين ونتنة عند المبغضين.

وكان أديباً فصيحاً بليغاً ذا نجدة ورأي وحزم إلا أن دولته كانت مزاحمة بأبي زكرياء يحيى بن الناصر، أقامه الموحدون منافساً له بإثر مبايعته لما تخوفوا من ضبطه، ولما بلغه خبر مبايعتهم للمذكور

ونكثهم بيعته أنشد:

**لَتَسْمَعَنَّ وَشِيكاً فِي دِيَارِهِم اللهُ أَكْبَر يَا ثَارَات عُثْمَانَا**

وكان إذا فكر في كثرة الثوار وما آلت إليه الدولة معهم من لانحلال ينشد متمثلاً:

**تَكَاثَرَت الظِّبَاء عَلَى خِرَاش فَمَا يَدْرِي خِرَاش مَا يَصِيد**

ومن آثاره النثرية قوله في رسالة:

«تباً لهمتكم المنحطة، وشيمتكم الراضية بادون خطة، أحين ندبتم إلى حماية إخوانكم، والذب عن كلمة إيمانكم نسقتم الأقوال وهي مكذوبة، ولفقتم الأعذار وهي بالباطل مشوبة، ولقد آن لكم أن تتبدلوا حمل الخرصان، إلى مغازل النسوان، وما لكم ولصهوات الخيول، وإنما على الغانيات جر الذيول»...

وكانت تصدر منه توقيعات نبيلة فمنها على رقعة امرأة تشكو بجندي نزل دارها وآذاها: «يخرج هذا النازل ولا يعوض بشيء من المنازل».

ومن شعر الخليفة عمر المرتضى بن إسحاق بن يوسف بن عبد المؤمن.

**ذَلِيل دَمْع مُقْلَتِه دَلِيل عَلَى أَنَّ الحَشَا فِيهَا غَلِيل**

**أَلَمَّ بِبَابِكُم يَبْغِي شِفَاء لِدَاء البُعْدِ فَهُوَ لَهُ قَتِيل**

**أَنِيلُونِي رِضَا مِنْكُم وَقُرْبَا وَحَاشَا مَجْدُكم أَنْ لَا تَنِيلُوا**

**لَئِن قَطَعْتَ سَبِيل الوَصْلِ عَنِّي خُطُوب شَرْحُها عِنْدِّي يَطُول**

فَشَافِع مَا اقْتَرَفت هُوَان ذَلِّي وَأَعْظَم شَافِع أَنِّي ذَلِيل
فَحَسْبِي أَنَّنِي عَبْدٌ قَطُوع وَحَسْبُك أَنَّك المَوْلى الوَصُول

وكان هذا الخليفة عالماً أديباً بارع الخط فاضلاً عفيفاً خيراً وله من أبيات في الدعاء:

دَعَوْتَ لِي الله مُسْتَعْطِفاً لِيُصْلِح مِنِّي مَا قَدْ فَسَد
وَيُصْلِّح نَفْسِي وَأَخْلَاقَها وَيُذْهِبُ عَنْهَا الرِّيَا وَالحَسَد
فَسُوقُ الرِّيَاء بِهَا نَافِقٌ وَسُوق العَفَاف بِهَا قَد كَسَد

## الدولة المرينية

أول سلاطينهم الذي استدف له ملك المغرب بعد الموحدين يعقوب المنصور بن عبد الحق، ولم يروِ له شيء من الشعر وإن كان له خطب في حض الجند على القتال، إذ جاز إلى الأندلس مراراً وله بها وقائع مع الإسبان. وكان ينصت إلى الشعراء ويقبل مدائحهم ويجزيهم عليها بالآلاف من العين. وكان شاعر دولته عبد العزيز الملزوزي وله فيه الملحمة الكبرى التي أولها:

**بِحَمْدِ الله افْتَتِحُ الخِطَابَا    وَأَبْدَأُ فِي النِّظَام بِهِ الكِتَابا**

ولما أنشده إياها أجازه عليها بعشرة آلاف دينار وأعطى منشدها ألف دينار.

ومن شعر ولده الأمير أبي مالك عبد الواحد:

**فَرَقْت فِي المَيْدَانِ كُلَّ مَلِيكٍ    وَجَمَعْتَ بَيْنَ جَرَاءَةٍ وَنُسُوكِ**

**وَجَعَلْتَ لِلإسْلَامِ حَداً مَالِكا    كَيْلا يُغَيِّرُه العِدا بِسُلُوكِ**

وهو بديع فما أحوج الإسلام إلى من يحمي حدوده في كل وقت وفي هذا الوقت بالخصوص ليلاً يصير حجة على معتنقيه كما هو الواقع الآن وهذا معنى قولهم يزع الله بالسلطان ما لا يزع بالقرآن. وإني لأعجب بهذين البيتين حتى أرى أنهما أفضل ما قاله

ملك مسلم من الشعر. وله أيضاً:

أَجُودُ بِمَا لِي لِكُلِّ العُفَاة ... وَأَقْتَحِمَ الهَوْلَ فِي العَضَلَاتِ

أَقُودُ الجُيُوشَ وَأُصْلِي الحُرُوبَ ... وَأَقْتَطِفُ الهَامَ بِالمُرْهَفَاتِ

وَأَحْمِي ثُغُورِي مِن أَنْ تُنَال ... وَأَغْزُو وَأَنْهَبُ أَرْضَ العِدَاةِ

وكان أبو مالك هذا على غاية العقل والنبل والكرم والنباهة والشجاعة والحلم محباً في الآداب والتاريخ مقرباً للعلماء والفقهاء عالماً بأنساب بني مرين وغيرهم من قبائل زناتة ذاكراً لأيامهم وحروبهم واختص بمجالسة جماعة من أهل العلم والأدب، منهم الملزوزي فمن أخباره معه في أريحية الأدب أنه دخل عليه في يوم من شهر رمضان وهو بقصر بحضرة مراكش قال: والسماء قد ارتدت بالسحائب والنهار يبكي بالدموع السواكب كأنه عاشق صد عنه حبيبه ففاضت دموعه عليه وكثر نحيبه، ولم يرق له مدمع، كأنه لم يبق فيه مطمع، فكأن الرعد حسرته والبرق لوعته وزفرته فقال لي: ما أحسن هذا اليوم، لو كان في غير شهر الصوم، فاقترح غاية الاقتراح علي وقال قل فيه شعراً بين يدي، فأنشدته هذا الأبيات:

اليَوْمُ يَوْمُ نَزَاهَةٍ وَعَقَارِ
وَتَقَرُّبِ الآمَالِ وَالأَوْطَارِ

أَو مَا تَرَى شَمْسَ النَّهَار وَقَد اخْتَفَت
وَتَسَتَّرَت عَنْ أَعْيُنِ النُّظَّارِ

وَالغَيْثُ سَحَّ غَمَامُهُ فَكَأَنَّهُ
دَنِفٌ بَكَى مِنْ شِدَّةِ التَّذْكَارِ

وَالــبَرْقُ لَاحَ مِــنَ الــسَّـمَــاءِ كَــأَنَّــهُ
سَــيْــفٌ تَــأَلَّــق فِــي سَــمَــاء غُــبَارِ
لَا شَــيْءَ أَحْــسَــنُ فِــيه مِــنْ نَــيْــلِ الــمُــنَى
بِــمُــدَامَــةٍ تَــبْدُو كَــشُــعْــلَــةِ نَــارِ
لَــوْلَا صِــيَــامٌ عَــاقَــنِي عَــنْ شُــرْبِــهَــا
لَــخَــلَــعْــتُ فِــي هَــذَا الــنَّــهَــارِ عِذَارِي
لَــوْ كَــانَ يُــمْــكِــنُ أَنْ يُــعَــارَ أَعَــرْتُــهُ
وَأَصُــومُ شَــهْــراً فِــي مَــكَــانِ نَــهَــارِ
لَــكِــن تَــرَكْــتُ سُــرُورَهُ وَمُــدَامَــهُ
حَــتَّــى أَكُــونُ لَــدَيْــهِ ذَا إِفْــطَــارِ
وَنُــدِيــرُهَــا فِــي الــكَــأْسِ بَــيْــنَ نَــوَاهِــد
تَــجْــلُــو الــهُــمُــومَ بِــنَــغْــمَــةِ الأَوْتَــارِ
فَــجُــفُــونَــهَــا تُــغْــنِــيك عَــن أَكْــوَاسِــهَــا
وَخُــدُودَهَــا تُــغْــنِــيك عَــن أَزْهَــارِ

فأجازه بخمسمائة دينار وكسوة فنقصه الوكيل من الدنانير وأعطاه كسوة خشنة وكان هذا الوكيل حاجاً فشكاه إلى الأمير بأبيات منها:

إِنْ كَــانَــتِ الــحُــجَّــاجُ طُــرّاً مِــثْــلَــهُ    لَا بَــارَكَ الــرَّحْــمَــنُ فِــي الــحُــجَّــاجِ

فضحك الأمير وأمر بتوفيته حقه وإعطائه مائة أخرى كفارة لما صنع معه.

ومن الشعر المنثور الذي يزري بقلائد النحور قول السلطان أبي سعيد بن يعقوب المريني وقد سأل كاتبه عبد المهيمن الحضرمي عن تهادي المحبين للتفاح دون الخوخ وكلاهما حسن المنظر طيب المخبر، شديد الشبه بأخيه، سديد تشبيه الوجنات به لمنوخيه، فقال من عند مولانا. فقال أرى ذلك لاشتمال التفاح على الحب الذي يذكر بالحب والهوى، والخوخ على النوى الذي يذكر اسمه صفرة الجوى، وربما كان لهذا السلطان شعر لأن نفسه نفس شاعر إلا أننا لم نقف عليه.

ومن شعر الأمير أبي علي بن السلطان أبي سعيد يخاطب أخاه السلطان أبا الحسن لما نقبض عليه:

أُخْنَى عَلَيّ زَمَانِي بِالبِعَادِ كَمَا
أَخْنَى عَلَى لُبَدٍ فِي صَفْقَةِ الغَبَنِ
فَلَا يَغُرَّنَّكَ الدَّهْرِ الخؤونُ فَكَمْ
أَبَادَ مَن كَانَ قَبْلِي يَا أَبَا الحَسَنِ
الدَّهْرُ مُذْ كَانَ لَا يَبْقَى عَلَى صِفَةٍ
لَا بُدَّ مِنْ فَرَحٍ فِيهِ وَمِن حَزَنِ
أَيْنَ المُلُوكَ الَّتِي كُنْتَ تَهَابَهُم
أُسْدُ العَرِينِ ثَوَوا فِي اللَّحْدِ وَالكَفَنِ
بَعْدَ الأَسِرَّة وَالتِّيجَانِ قَد مُحِيَت
رُسُومُها وَعَفَت مِن كُلِّ ذِي حَسَنِ

فَـاعْـمَـل لِأُخْـرَى وَكُـن بِـالـعُـرْفِ مُـؤْتَـمِـرا
وَاسْـتَـغْـنِ بِـالله فِـي سِـرٍّ وَفِـي عَـلَـنِ
وَاخْـتَـر لِـنَـفْـسِـكَ أَمْـراً أَنْـتَ آمِـرَه
كَـأَنَّـنِـي لَـم أَكُـن يَـوْمـاً وَلَـم تَـكُـنِ

وله أيضاً:

أُغَـالِـبُ فِـيـكَ الـشَّـوْقَ وَالـشَّـوْقُ أَغْـلَـبُ
وَأَطْلُـبُ مِنْكَ الوَصْلَ وَالنَّجْمُ أَقْرَبُ
وَيُـطْـمِـعُـنِـي قَـلْـبِي بِـوَصْـلِ وَأَنَّـنِـي
سَـأَعْـلَـم حَـقـاً أَنَّ قَـلْـبِي يَـكْـذِبُ
حَـيَـاتِـي وَمَـوْتِـي فِـي يَـدَيـكَ وإِنَّـنِـي
أَمُوْت وَأَحْيى حِينَ تَرْضَى وَتَغْضَبُ
فَلَا الـوَصْـلُ يُـحْـيِـيـنـي وَلَا الـهَـجْـرُ قَـاتِـلِي
وَلَا لِـي بَـدَلاً وَلَا عَـنْـكَ مَـهْـرَبُ

وله أيضاً:

مِلْ يَا نَسِيم عَلَى غُصُون المَنْدَلِ وَانْعَم بِتِلكَ المَائسَاتِ المُيَّلِ
وَإِذَا مَرَرتَ عَلَى الدِّيَارِ فَسَلْ بِهَا عَن رَاحِلٍ عَنْها وَمَن لَم يَرْحَلِ
زَمُّوا المُطِيَّ وَخَلَّفُونِي بَعْدَهُم تَجْرِي دُمُوعِي فِي رُسُوم المَنْزِلِ

وكان هذا الأمير على ما عند ابن خلدون محباً للعلم مولعاً بأهله منتحلاً لفنونه وله بصر بالبلاغة واللسان وهو الذي جلب

الرئيس عبد المهيمن الحضرمي لكتابته من سبتة لما رأى الأيدي تشير إليه.

فلما خرج على أبيه السلطان أبي سعيد ثم تصالحا كان في جملة شروطه على أبيه أن يبقى الرئيس المذكور في جملته، وكان قد انحاش إلى أخيه أبي الحسن في أيام خروج أبي علي، فلما سمع أبو الحسن بذلك حلف ليقتلن عبد المهيمن إذا هو انخزل عنه إلى أخيه.

فتحير عبد المهيمن ورفع أمره إلى السلطان فأمره بملازمته هو والكون في معيته.. فهكذا تكون الهمم والتنافس في المعالي و المعرفة بأقدار الناس والتكثر من ذوي الكفاءات رحم الله الجميع.

ومن شعر أخيه السلطان أبي الحسن المريني وهو واسطة عقدهم وصاحب الذكر المرفع فيهم:

**أُرْضِـي الله فِـي سِـرِّي وَجَـهْـرِي وَأَحْمِي العِرْضَ مِنَ دَنَسِ ارْتِيَابِ**

**وَأُعْطِي الوِفْرَ مِن مَالِي اخْتِيَارا وَأَضْرِبُ بِالسُّيُوفِ طُلْيَ الرِّقَابِ**

كان السلطان أبو الحسن عالماً أديباً متفنناً في ضروب المعارف محباً للعلماء لا يفارقون مجلسه ممدحاً من الشعراء وقد اجتمع له من هذين الصنفين ما لم يجتمع لملك في عصره فمن أندلسيين إلى مغاربة إلى أفارقة والكل يمرح في بحبوحة رضاه ويفوز بالقدح المعلى من عطاياه أما ما بناه، من المدارس والمساجد والآثار المختلفة فحدّث ولا حرج وكلها من الفخامة بمكان ومما يحكى عنه أنه أمر ببناء مدرسة علمية بمدينة مكناس وقدم للنظر في بنائها قاضي

المدينة فرفع إليه أنه بذر فيها مالاً عظيماً. فلما تم بناؤها جاء إليها من فاس ليقف عليها ويرى عملها فلما رآها أعجبته صنعتها ورأفة بناؤها فجلس على كرسي حول صهريج الوضوء وجيء بالرسوم المتضمنة للتنفيذات اللازمة للبناء فغرقها في الصهريج قبل أن يطلع عليها وأنشد:

**لَا بَأْسَ بِالغَالِي إِذَا قِيْل حَسَن    لَيْسَ لِمَا قَرَّت بِهِ العَيْنُ ثَمَنْ**

ومن شعر ولده السلطان أبي عنان فارس الذي ألف ابن خلدون تاريخه باسمه:

**يَا رَامِياً بِالنِّبَالِ مِنْ غَنَجٍ    وَصَائِلاً بِالنِّصَالِ مِنْ دَعَجِ**

**وَبَادِياً كَالهِلَالِ فِي سُحُبٍ    وَطَافِحاً مِن سُلَافَةِ الفلجِ**

**وباسماً عن لآلئ نسقت    وناسماً كل عَاطِرٍ أرجِ**

**رِفْقاً بِقَلْبِي فَإن فِيه هَوَى    وَلَا تُطِل فِي المِلَالِ وَالحَرَجِ**

وله وكانت بيده تفاحة فدخلت عليه جارية كان يحبها فرماها إليها وقال:

**خُذْهَا إِلَيْكَ هَدِيَّةً    مِنْ كَفِّ مَلِكٍ مَالِكْ**

**يُبْدِي العَطَايَا دَائِماً    وَيُبِيدُ شَمْلَ الفَاتِكِ**

وله أيضاً:

**جِسْمِي أَضَرَّ بِهِ السَّقَامُ    وَالجَفْنُ قَدْ عُدِمَ المَنَامُ**

**يَا هَاجِرِي مِنِّي عَلَى    أَنْوَار غُرَّتِكَ السَّلَامُ**

وله في الحكمة:

**وَإِذَا تَصَدَّرَ لِلرِّيَاسَةِ خَامِلٌ جَرَتِ الأُمُورُ عَلَى الطَّرِيقِ الأَعْوَجِ**

كان الشيخ العلّامة الجامع أبو زيد عبد الرحمن الزودي رحمه الله يحدثني أن هذا بيت من قصيدة للسلطان المذكور وقف هو عليها ولكني لم أرها عند أحد وله أيضاً وقد دخل عليه رجل متصلح فلما نظر إليه قال بديهة:

**تَرَاهُم فِي ظَوَاهِرِهِم كِرَاما وَيُخْفُونَ المَكِيدة وَالخِدَاعَا**

وكان السلطان أبو عنان فقيهاً يناظر العلماء الجلة عارفاً بالمنطق وأصول الدين وله حظ صالح من علمي العربية والحساب وكان حافظاً للقرآن عارفاً بناسخه ومنسوخه حافظاً للحديث عارفاً برجاله فصيح القلم كاتباً بليغاً حسن التوقيع شاعراً مبدعاً وله آثار دينية من بناء المدارس والمساجد وغيرها ناهيك بمدرسته البوعنانية بفاس التي لا تزال تعد من بدائع الفن والعمارة المغربيين. ومدائح الشعراء له ومنائحه لهم مما يضيق المجال عن الإشارة إليه فضلاً عن استيفائه.

ومن شعر السلطان أبي العباس أحمد بن أبي سالم بن أبي الحسن وكان شاعراً محسناً بديع التشبيه:

**أَمَا الهَوَى يَا صَاحِبِي فَأَلِفْتُه وَعَهِدْتُهُ مِنْ عَهْدِ أَيَّامِ الصِّبَا**

**وَرَأَيْتُهُ قُوتَ النُّفُوسِ وَحِلْيَهَا فَتَخِذْتُهُ دُنْيَا إِلَيّ وَمَذْهَبَا**

**وَلَبِسْتُ دُونَ النَّاسِ مِنْهُ حُلَّةً كَانَ الوَفَاءُ لَهَا طِرَازاً مُذْهَبَا**

**لَكِن رَأَيْتُ لَهُ الفِرَاق مُنَغِّصاً لَا مَرْحَباً بِفِرَاقِنَا لَا مَرْحَبَا**

ومن شعر ولده السلطان أبي فارس عبد العزيز وقد نزل المطر بعد انحباسه:

اللهُ يَلْطُفُ بِالعِبَادِ فَوَاجِبٌ أَنْ يَشْكُرُوا فِي كُلِّ حَالٍ نِعْمَتَهْ
فَهُوَ الذِي فِيهِم يُنْزِلُ غَيْثَهُ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهْ

# الدولة السعدية

أول من قعد قواعد الملك في هذه الدولة السلطان أبو عبد الله محمد الشيخ وكان أديباً متفنناً حافظاً ممتع المجالسة كثيراً ما ينشد:

**النَّاسُ كالنَّاسِ والأَيَّامُ وَاحِدَةٌ وَالدَّهْرُ كَالدَّهْر وَالدُّنْيَا لِمَنْ غَلَبا**

وكان يحفظ القرآن وصحيح البخاري ويقول في شرحه لابن حجر ما صنف في الإسلام مثله. وكان يحفظ ديوان المتنبي عن ظهر قلب ويحض على المشاورة ويقول لا سيما في حق الملوك وينشد قول أبي الطيب.

**وَمَنْ جَهِلَتْ نَفْسُهُ قَدْرَهُ رَأَى غَيْرُهُ مِنْهُ مَا لَا يَرَى**

وكان يقول: ينبغي للملك أن يكون طويل الأمل فإن طول الأمل وإن كان لا يحسن من غيره فهو منه صالح لأن الرعية تصلح بطول أمله. وهو والد عبد الله الغالب وعبد الملك المعتصم وأحمد المنصور الذهبي الذين ملكوا بعده على هذا الترتيب ومحمد الحران قائد جيوشه وعبد القادر وزيره.

فيحكي أن العلّامة اليسيثني دخل عليه وحوله بعض بنيه المذكورين فأنشده:

**فَقُلْتُ عَسَى أَنْ تُبْصِرِيني كَأَنَّما بَنِى حَوَالَيَّ الأُسُود الحَوَارِدِ**

فأعجب ذلك السلطان وأولاده وعلى أريحية هذا السلطان الأدبية لم يروِ له شعر.

ولحفيده الأمير محمد بن عبد القادر وكان قدم من مراكش إلى فاس ومعه القاضي الحميدي فبدت له معالم فاس فقال ارتجالاً.

أَخِلاَّي هَذَا المُسْتَقِي وَرُبُوعُهُ
وَهَاذِي نَوَاعِيرُ البِلَادِ تَنُوحُ

وَذَاكَ المُصَلَّى مَطْرَحُ الشَّوْق وَالأَسَى
وَتِلْكَ مَنَازِل الدِّيَارِ تَلُوحُ

فقال القاضي:

وَتِلْكَ القِبَابُ الخُضْر شِبْهُ زَبَرْجَدِ بِهِنَّ غَوَانٍ طَرْفُهُنَّ جَمُوحُ
يَمِسْنَ كَأُمْلُودِ مِنَ الرَّوْضِ يَانِعٌ شَذَاهُنَّ مِن حَوْلِ الدِّيَارِ يَفُوحُ

والمستقي بصيغة اسم المفعول اسم بستان والنواعير معروفة وهي الدواليب التي ترفع الماء من الأنهر ونحوها.

ومن شعره في بعض الأسفار وقد أرسلت السماء بغيثها المدرار وكان هو وكاتبه عبد الواحد الشريف فقال:

لِلَّه أَشْكُو غَدَاةَ السَّفح إِذْ رَكَضَتْ
أَيْدِي المَطَايَا وَحَادِي الرِّيحِ يَحْدُونا

فقال الكاتب:

وَالغَيْمُ فِي الأُفْقِ قَدْ أَرْخَى ذَوَائِبَهُ بِأَسْهُمِ الوَدقِ لا يَنْفَكُّ يَرْمِينَا

فقال الأمير:

حَتَّى اسْتَوى المَاءُ والآكَامُ واسْتَتَرَت

مَعَالِمُ الرُّشْدِ لَا خِرِّيْت يَهْدِينَا

فَظَلَّت الخَيْلَ فِي الأَمْوَاجِ سَابِحَةٌ

سَبْحَ السَّلاحِفِ نحو الأَرضِ يَهْوِينَا

فقال الكاتب:

والنَّفْسُ فِي قَلَقٍ لِبَيْنِ مَأْلَفِها     وَالشَّوْقُ يَجْذِبُنَا وَالحَالُ يُقْصِيْنَا

فقال الأمير:

كَأَنَنَا لَمْ نَبِت وَالوَصْلُ ثَالِثُنَا     حَتَّى غَدَا الطَّيْرُ فَوْقَ السَّرْحِ يَبْكِينَا

وزر هذا الأمير لعمه السلطان عبد الله الغالب وكان من أنبل الوزراء وأحسنهم مسلكاً.

وله عارضة قوية في النظم والنثر.

ومن شعر السلطان محمد المتوكل بن عبد الله الغالب وكان أديباً مجيداً:

فَقُم بِنَا نَصْطَبِح صَهْبَاءَ صَافِيَة     فِي وَجْهِهَا ذَهَبٌ فِي وَجْهِهِ نُقَط

وَانْهَض إِلَيْها عَلَى رَغْمِ العِدَا قَلِقَا     فَإِنَّ تَأْخِيرَ أَوقَاتِ الصَّبَا غَلَط

وله أيضاً:

خَلِيلَيَّ مَا يخفى انْحِصَارِي عَن الصِّبَا

فَحُلّا عِقَالِي قَدْ أَضَرَّ بِي الرَّبْط

وَلَا تَــخْــفَــلَا مِــن لَام أَو تَــتْــلُــوهَــا
فَــإِنَّ بِــحَــار الــلَّــوْم لَــيْــسَ لَــهَــا شَــطُّ

وقال أيضاً:

سَارُوا وَسَارَ فُؤادِي إِثْرَ ظَعْنِهِم ... وَخَلَّفُونِي نَحِيْلِ الجِسْمِ حَيْرَانا
لا أَفْتَرَ ثَغْرُ الثَّرَى مِنْ بَعْدِ بَيْنِهِم ... وَلَا سَقَى هَاطِلٌ وَرْداً وَرَيْحَانا

ومن شعر واسطة عقدهم السلطان أبي العباس أحمد المنصور المعروف بالذهبي قوله في وردة مقلوبة بين يدي محبوبة له:

وَوَرْدَةَ شَفَعَتْ لِي عِنْدَ مُرْتَهَنِي ... بَدَتْ وَقَدْ سَجَدَتْ لِفَاتِرِ الحَدَقِ
كَأَنَّ خُضْرَتَهَا مِنْ فَوْقِ حُمْرَتِها ... خَالَ عَلَى خَدِّهِ مِن عَنْبَرٍ عَبَقِ

ومن يعرف الخال العنبري الذي يوضع على الخدود يعلم عقم هذا التشبيه. والمنصور الذهبي في ملوك المغرب كابن المعتز في ملوك المشرق فقد كان شاعراً بليغاً مكثراً بالنسبة لأهل طبقته بديع التشبيه غريب المنزع مذهب الديباجة وله عدا الشعر تآليف منها كتاب في السياسة وتدبير الملك أوله.

«نحمدك اللّهمّ على ما أنلت من رياسة، وعلمت من سياسة ووهبت من ملك، ونظمت من سلك، وكففت من أعداء، وهديت من آراء، ونصلي على مبلغ أنبائك، وخاتم أنبيائك، المؤيد بأهل أرضك وسمائك، من به أقمت على خلقك الحجة، وبلسانه الصادق نهجت لهم في أتباعها المحجة، صلاة تكون له كفاء، ولمجده السامي وفاء.

وبعد فلنا حاجة إلى تكميل أنفسنا في قواها البشرية باستعمالها في

حقائق المعلومات العلمية والنظرية، وعلوم الحكمة العلمية أولى بنا لما نحن فيه، وأعون على ما نجلبه لهذا الأمر العلوي الفاطمي أو ننتقيه، فلنصرف أولاً عنان القول إليها، ولنجلب بالخيل والرجل في ميدان هذه الطروس عليها، ومن الله نستمد وعلى عونه جلَّ وعزَّ نعتمد».

وله غير هذا الكتاب. قال الفشتالي وكان عازماً على أشعار الشرفاء من أهل البيت وأفرادها... ففكر في مجموع شعر من نحو ما نحن فيه.

وله كل توقيع حسن، فمن ذلك ما وقع به لمولاه جؤذر فاتح السودان وقد خاطبه بما طلبه ملك السودان من الصلح على مال معلوم فكتب على خطاب جؤذر بخطه ﴿أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم﴾ [النمل: 36] الآية.

وأمر إحيائه لدولة الأدب وأخذه بضبع الشعر حتى أنهضه بعد كبوته وإجازته للشعراء بالآلاف العين وقصد الوفود له من كل مكان معلوم حتى أنه اجتمع عنده مرة ثلاثة فضلاء أحدهم شريف مكي والآخر مدني والثالث أمام الدين الخليلي من بيت المقدس فأنشده الخليلي.

**إِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَحْمَد بَحْرُ النَّدَى وَفَضْلُهُ لا يُجْحَد**

**فَطَيْبَة وَمَكَّة أَهْلُهُمَا وَالمَسْجِد الأَقْصَى بِذَاكَ شَهِدُوا**

وقال نصرك الله أنه لم يتفق هذا لملك قصدت إيالته فتبسم لذلك وأجزل صلاتهم.

ونرجع إلى رواية بعض المختار من شعره فمن ذلك قوله:

مِنْ عَنْبَرِ الشَّحرِ أَو مِنْ مِسْكِ دَارِينَ
بَلَى وَمِنْهُ نُسَيْمَاتُ الرَّيَاحِين
مُهَفْهَفُ أَنْ تَثَنَّى قُلْت مُقْتَضِبٌ
مِنْ قَض نُعْمَان أَو مِن كُثُبِ يَبْرِين
ذَنْبِي إِلَيْهِ وَلَا ذَنْب مَحَبَّتِه
مِنْ أَجْلِها بِسِهَام اللَّحْظِ يَرْمِيني
يَا مَا أُمَيْلِحَهُ ظُلْماً رَضِيْتُ بِهِ
لَوْ أَنَّهُ دَامَ مِنْهُ كَانَ يَكْفِيني
مُعَذِّبِيَّ قَدْ حُرِمْتُ النَّوْمَ بَعْدَكُمُ
فَامْنُن عَلَيَّ بِنَوْم غَيْرِ مَمْنُونِ
أَوْمِض عَلَى وَرْدِ ذَاكَ الخَدِّ بَرْقَ فَمٍ
يُعَوِّضُ الخَدِّ مِنْ وَرْدِ بِنسْرِين

وله أيضاً:

أَقَامَ بِقَلْبِ فِي هَوَاهُ مُقَلَّبٌ وَأَنَّى لَهُ بَيْنَ الضُّلُوعِ مَقَامُ
فَيَا شَادِناً مَرْعَاهُ حَبَّةُ مُهجَتِي أَمَا لِحَشَا أَقَمْتَ فِيه ذِمَامُ

وله أيضاً:

تَبَدَّى وَزِنْدُ الشَّوْقِ يَقْدَحُهُ النَّوَى
فَتُوقِدُ أَنْفَاسِي لَظَاهُ وَتُضْرِمُ

وَهَشَّ لِتَوْدِيعِي فَأَعْرَضْتُ مُشْفِقاً
عَلَى كَبِدٍ حَرٍّ أَو قَلْب يُقْسِمُ
وَلَوْلَا ثَوَاهُ بِالحَشَا لَهِنْتُهَا
وَلَكِنَّهَا تَعْزَى إِلَيْهِ فَتُكْرَمُ
عَجِبْتُ لآسَادِ الشَّرَى كَيْفَ أَحْجَمَت
عَلَى أَنَّهُ ظَبْى الكناس وَيَقْدِمُ

وله أيضاً:

طَرَقْتُ حِمَاهُ وَالأُسُودُ خَوَادِرٌ ... بِهِ فَتَوَلَّى فِي الظُّبا وَهُوَ يَبْعُدُ
نَعَلِمَتْ آسَادُ الشَّرَى كَيْفَ أَقْدَمَت ... وَعَلِمَ غِزْلَانُ النَّقَا كَيْفَ تَشْرُدُ

وقال مورياً:

إِنَّ يَوْماً لِنَاظِرِي قَدْ تَبَدَّى ... فَتَمَلَّى مِنْ حُسْنِهِ تَكْحِيلَا
قَالَ جَفْنِي لِصِنْوِهِ لَا تَلَاقِي ... إِنَّ بَيْنِي وَبَيْنَ لُقْيَاكَ مِيلَا

وبعث إلى جارية كانت مغاضبة له بوردة في زمن النرجس قطفها من بستان المسرة ومعها هذه الأبيات.

وَافَى بِهَا البُسْتَانَ صِنُوُكَ وَرْدَةٌ ... يُقْضَى بِهَا لِمَّا مَطَلَتْ وُعُوْدَا
أَهْدَى البُهَّارُ مَحَاجِراً وَأَتَى بِهَا ... فِي وَقْتِهِ كَيْمَا تَكُونُ خُدُودَا
فَبَعَثْتُهَا مُرْتَادَةً بِنَسِيمِهَا ... تَثَنَّى مِنَ الرَّوْضِ النَّضِير قُدُودَا

فرضيت عنه وأقبلت عليه، وله مدحاً في النبي ﷺ.

يَا خَاتِمَ الإِرْسَالِ جِئْتُكَ مَادِحاً ... فَاجْعَل كفَائِي مِنْكَ عَطْفَةَ رَاحِم

الأَنْـبِيـاءَ وإِن أَتَـوا بِـمَـنَـاشِـرِ     لَـكِنَّـهـا تَـحْـتَـاجُ مِنْـكَ لِخَـاتِـمِ

وهو بديع رأيته منسوباً إليه بخط بعض العلماء... وله غير هذا شعر كثير في التورية والاستخدام واللغز أضربنا عنه صفحاً لضيق المقام عن تفسيره وبيان نكته وبالجملة فإن هذا الملك كان بحق مجدداً لمجد العروبة في المغرب على رأس الألف فقدس الله روحه وبرد ضريحه.

ومن شعر ولده السلطان أبي المعالي زيدان وكان أديباً أريحياً:

فَـتَـنَـتْـنَـا سَـوَالِـفٌ وَخُـدُودُ     وَعُـيُـونٌ مُـدْعَـجَـاتٌ رُقُـودُ

وَوُجُـوهٌ تَـبَارَكَ[1] اللهُ فِـيـهَـا     وَشُعُـورٌ عَلَـى الـمَنَاكِـبِ سُودُ

أَهْـلَـكَـتْـنَـا الـمِـلَاحُ وَهِـي ظِـبَاء     وَخَـضَـعْـنَـا لَـهَـا وَنَـحْـنُ أُسُـودُ

وله أيضاً.

مَـرَرْتُ بِقَـبْرٍ هَـامِـدٍ وَسْـطَ رُوْضَـةٍ     عَـلَـيْـهِ مِـنَ الـنَّـوارِ مِـثْـلُ الـنَّـمَـارِقِ

فَقُلْتُ لِمَنْ هَـذَا فَقَـالُـوا بِـذِلَّـةٍ     تَـرَحَّـم عَـلَـيْـهِ إِنَّـهُ قَـبْرُ عَـاشِـقِ

وكان هذا الشعر في حفظي منذ الصبا من غير نسبة هكذا.

مَـرَرْتُ بِـقَـبْرٍ دَارسٍ وَسْـطَ رَوْضَـةٍ     عَـلَـيْـهِ مِـنَ الأَحـزَانِ سَبْعُ شَـقَـائِـقِ

فَقُلْتُ لِمَنْ ذَا القَبْرِ جَاوَبَنِي الثَّرَى     تَـرَحَّـمْ عَـلَـيْـهِ إِنـه قَـبْرُ عَـاشِـق

فَقُلْتُ سَقَاكَ اللهُ يَا مَيْتَ الهَوَى     وَأَسْكَنَكَ الفِرْدَوْس أَعْلَى الشَّوَاهِقِ

مَسَاكِنُ أَهْلِ العِشْقِ حَتَّى قُبُورُهُـم     عَلَـيْـهـا تُـرَابُ الـذُلِّ بَـيْـنَ الـخَـلَائِـقِ

وهو من أشعار ألف ليلة وليلة.

---

(1) فيه استعمال تبارك في محل بارك مجاراة لقول العامة تبارك الله عليك.

# الدولة العلوية
# أدام الله سعدها وحرس مجدها

من شعر الأمير مولاي محمد بن السلطان مولاي إسماعيل مخاطباً شيخه أبا عبد الله القسمطيني أيام خلافته بسوس ومتشوقاً إلى فاس.

أَلاَ لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أُنَزِّهُ نَاظِرِي
وَلِلنَّفْسِ إِقْبَالٌ بِوَادِي الجَوَاهِرِ

أُمَتِّعُ طَرْفِي فِي رِيَاضٍ أَنِيقَةٍ
وَأَقْطُفُ أَزْهَاراً بِهَا كَالزَّوَاهِرِ

بِحَيْثُ تَرَى أُسْدَ العَرِينِ صَرِيعَةً
وَقَدْ فَتَكَتْ فِيهَا ظِبَاءُ المَقَاصِرِ

وَحَيْثُ تَرَى غَابُ الحَدَائِقِ سَلْسَلَت
حَدِيثاً صَحِيحاً عَن نَسِيمِ الأَزَاهِرِ

وَقَدْ نَسَجَتْ كَفُّ النَّسِيمِ عَشِيَّةً
دُرُوعَ مِيَاهٍ بَيْنَ تِلْكَ النَّوَاعِرِ

وَأَصْبَحَتْ الأَطْيَارُ فَوْقَ غُصُونِهَا
فَصَاحا تَقُصُّ فَوْقَ خُضْرِ المَنَابِرِ
سَقَى الله أَدْوَاحا بِفَاسَ عَهِدْتُهَا
تُغَازِلُ أَنْواءَ الغُيُوثِ المَوَاطِرِ
وَلَا بَرِحَتْ عَيْنُ تَرَاهَا قَرِيْرَةً
وَإِنْ قَذَفَتْ بِالقَلْبِ جَمْرَة حَائِرِ
لَكَ الله مِنْ أَلْفِ بِدرْعَةِ جِسْمِهِ
وَقَلْبٌ بِفَاسَ فِي قُدَامَةِ طَائِرِ
تُرَاوِحُهُ الأَشْوَاقُ فِي كُلِّ لَيْلَةِ
فَمَا بَيْنَ مَزُورٍ هَوَاهُ وَزَائِرِ
وَلَو أَنَّهُ يُعْطَى عَلَى قَدْرِ قَدْرِهِ
لَكَانَ لَهُ مَا بَيْنَ بِسْرِ وَبَاسِرِ
فَمَنْ مُبْلِغٍ عَنِّي رِسَالَة شَيِّقِ
إِلَى عَالِمِ الأَعْلام صَدْرِ الأَكَابِرِ
إِلى العَالِمِ النِّحْرِيرِ والحُجَّةُ الَّتِي
رَوَى فَضْلَها غُرُّ السُّرَاةِ الجَمَاهِرِ
إِلى شَيْخِنَا الأَسْمَى أَسْمَى مُحَمَّد
أُحَمِّلُها هُوجُ الرِّيَاحِ العَوَاطِرِ

أُحَمِّلُهَا مِنَ النَّسِيمِ تَحِيَّةً
إِلَى المَاجِدِ الأَرضِي كَرِيمِ العَنَاصِرِ

وأُنْطِعُهَا الودَّ الصَّمِيم وإِن نَأَتْ
بِهِ الدَّارُ عَنْ بَحْرٍ مِنَ العِلْمِ زَاخِرِ

فلِلّه مَا يَشْكُو الفُؤَادُ من النَّوَى
ولله مَا تَطْوِي بُطُونُ الدَّفَاتِرِ

إِذَا مَا ذُكَرْتُ العَهْدَ واشْتَقْتُ لِلْقَا
جَعَلْتُ فُؤادي بَيْنَ أَضْلُعِ صَابِرِ

فيَا دَوْحَةَ العِلْمِ الَّتِي عَمَّ عَرْفُهَا
جَمِيعَ البَرَايَا بَيْنَ بَادٍ وَحَاضِرِ

وَيَا سَيِّداً أَحْمَلْتُهُ كُلَّ وَارِدٍ
سَلَامِي وَقَدْ حَمَّلْتُهُ كُلَّ صَادِرِ

وَيَا كَوْكَبا قَدْ حَلَّ فِي أُفُقِ الهُدَى
فَأَلْقَى سَنَاهُ فِي عُيُونِ المَنَائِرِ

أَلَسْتَ الذِي إِنْ عَزَّ فِي العِلْمِ مُشْكِلٌ
تَلَقَّاهُ فَهْمٌ مِنْكَ فِي زِيِّ بَاتِرِ

أَلَسْتَ الَّذِي تَرْتَاحُ كُلُّ عَوِيصَةٍ
إِلَى ذِهْنِهِ مَا بَيْنَ نَاهٍ وآمِرِ

حَنَانَيْكَ هَاضَ القَلْبُ سَهْمَ ابنِ مُقْلَةٍ
فَأَدْمَى فَهَلْ تَرْوي حَدْيث ابنِ جَابِرِ
عَلَيْكَ سَلاَمُ اللهِ مَا هَاجَ شَيِّقاً
بَرِيْق وَمَا لاحَ الصَّبَاحُ لِنَاظِرِ

فأجابه الشيخ بقصيدة مطلعها:

خَلِيْلَيَّ عُجَّ بِالرَّكْبِ مِنَ أُمِّ عَامِرِ وَعَرِّج عَلَى كُثْبَانِ نَجْدٍ وَحَاجِرِ

وكان هذا الأمير يعرف بمحمد العالم لتضلعه ومهارته في العلوم والفنون كالنحو والبيان والمنطق والكلام والأصول فضلاً عن الأدب...

وخرج على والده بالسوس فظفر به وأعدمه وكانت قضيته من الفتن العظيمة بالمغرب عمت أهل القطر السوسي وخصت الأعيان من العلماء الذين كانوا يخالطون محمد العالم هذا ومنهم العلاّمة أبو عبد الله المسناوي الدلائي.

وكان من أخص خاصته فوشى به إلى السلطان وقيل أنه من شدة اتصاله به لا يغيب عنه عزمه على القيام فاعتذر عنه بعض أحبائه بأنه كان ينهاه عن القيام وأنشد له في ذلك:

مَهْلاً فَإِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ غَايَةٌ وَالدَّهرُ يَعْكُسُ حِيْلَةَ المُحْتَالِ
فَالبَدْرُ لَيْسَ يَلُوحُ سَاطِعُ نُورِهِ وَالشَّمْسُ بَاهِرَةُ السَّنَا فِي الحَالِ
فَإِذَا تَوَارَتْ بِالحِجَابِ فَعِنْدَ ذَا يَبْدُو بُدُوَّ تَعَزُّزٍ وَجَمَالِ

ومن اللطائف الأدبية أن الأمير الشريف أخا محمد العالم كتب

إليه بقول سيف الدولة:

رَضِيتُ لَكَ العَلْيَا وَإِنْ كُنْتَ أَهْلَها
وَقُلْتُ لَهُم بَيْنِي وَبَيْنَ أَخِي فَرْقْ

أَمَا كُنْتَ تَرْضَى أَنْ أَكُونَ مصليا
إِذَا كُنْتُ أَرْضَى أَنْ يَكُونَ لَكَ السَّبْقْ

فاقترح المولى محمد العالم على الشيخ المسناوي الجواب عنه فقال:

بَلَى قَدْ رَضِيْتُ أَنْ تَكُونَ مُجَلِّيا وَيَتْلُو نَدَاكُم فِي العُلَا مَنْ لَهُ السَّبْقُ

وَمَا لِي لَا أَرْضَى لَكَ المَجْدَ كُلَّهُ وَأَنْتَ شَقِيقُ النَّفْسِ إِنْ عُرِفَ الحَقُّ

وَلَكِن ذَوُو الضَّغْنِ انْتَحُوا ذَاتَ بَيْنِنَا فَغَادَرَهَا إِفْسَادُهُم وَبِهَا رَتْقُ

ومن نثره ما كتب به للوزير اليحمدي وقد بلغه أنه أثنى عليه عند والده مولاي إسماعيل:

حيا الله بمنّه ركن الدولة الإسماعيلية وسميرها، ومنتقى هاتيك الحضرة السامية ووزيرها، مطلع أنوارها، ومعدن أسرارها أبي العباس اليحمدي هذا ولا زائد سوى تأكيد ود صفا مشربه وطاب أعذبه، وأعلامك بأن بعض محبيك كاتبنا بجميع ما قلته فينا، وما صدر منك إلينا من الصنائع والإحسان، فقد أحسنت أبا العباس ولم يتقدم لك منا إحسان، وقمت في نصرتنا مقاماً لم يقم معك فيه إنسان، وقد أسديت والله شكور، وأتجرت تجارة لن تكسد ولا تبور... ومن قبل كنا بحقك جاهلين وعن قدرك ذاهلين.

والآن تبين الحق، وحصحص الصدق، واتضح الكهام من الحسام، والصيب من الجهام... فدم على ذلك أدام الله سيادتك، وأبقى بمنّه مجادتك والسلام.

ومن شعر أخيه الأمير زيدان:

لَمْ أَنْسَ يَوْمَ زَارَنِي قَمَرِي فَكَمَّلَ الإِنْسُ بِهِ إِذْ جَلَس
قَبَّلْتُ مِنْهُ الخَدَّ مُخْتَلِساً وَإِنَّمَا العَيْشُ الشَّهِيُّ خَلَس
وَمِلْتُ لِلثَّغْرِ عَلَى غِرَّةٍ مِنْهُ فَمَا أَطْيَبَ ذَاكَ اللَّعَس
فَجَادَ لِي بِالرِّيقِ حَيْثُ دَرَى أَنِّي عَلِيلٌ لا أُطِيقُ النَّفَس
وَبِتُّ نَشْوَانَ بِعَافِيَةٍ أَغْتَنِمِ الفُرْصَةَ عِنْدَ الغَلَس

ومن شعر السلطان الأسبق المولى عبد الحفيظ رحمه الله في حيوان كان عنده ومات.

سَكَبَتْ دَمْعَهَا فَهَاجَتْ مَآقِيَ وَتَدَانَتْ وَرُوحُهَا فِي التَّرَاقِي
بَرْهَنَتْ لِي عَنْ وِدِّهَا وَقَدِيمِ الـ ـعَهْدِ مِنْهَا بِشِدَّةِ الإِشْفَاقِ
أَوْقَدَتْ بِفِرَاقِهَا نَارَ وَجْدِي لَيْتَ شِعْرِي هَلْ لِلتَّفَرُّقِ رَاقِ
أَفْزَعَتْنِي بِغَشْيَةٍ قَدْ عَلَتْهَا فَهَرَعْتُ لِضَمِّهَا وَاعْتِنَاقِ
ثُمَّ نَادَيْتُ (يَا حَذَامِ) لَ أَدْرِي هَلْ لِرُوحٍ تَمَاسُكٌ بِاعْتِلَاقِ
فَأَصَاخَت إِلَى كَلَامِي وَلَبَّت مَا عَلَى المَيْتِ إِن أَبَى مِنْ شِقَاقِ
امْتِثَالاً لَمَّا دَعَوْتُ أَجَابَت وَأَبَانَت صَدَاقَةً فِي السِّيَاقِ
ثُمَّ جَادَتْ بِنَفْسِهَا وَاسْتَرَاحَتْ مِنَ أَلِيمِ العَذَابِ وَالإِرْهَاقِ

فَدَفَعْتُ بِهَا إِلى التُّرْبِ حِفْظاً لِحُقُوقٍ أكِيدَةَ المِيثَاقِ

تَكْفُتُ الأَرْض كُلَّ حَيٍّ وَمَيِّتٍ فَالثَّرى لِجُسُومِنَا كَالطِّبَاقِ

يَا مَنَايَا هَلَا رَمَيْتِ سِهَاماً نَحْوَ مَا شَيَّدُوا حُصُونَ النِّفَاقِ

وَتَرَكتِ سَلِيْمَةَ الصَّدْرِ مَنْ كَا نَتْ إِلَى المَوْتِ من أَحنِّ الرِّفَاقِ

كُنْتُ قَدماً أَذُبُّ عَنْهَا وَلَكِن مَا مِنَ المَوْتِ إن أَتى مِن وَاقِ

وهي قصيدة طويلة تخيرت منها هذه الأبيات وأخبرني أحد خدام السلطان وهو الذي مكنني بشعره هذا أن الحيوان المرثى كان كلبة وهو ظاهر من أوصافه في الشعر وله أيضاً في شكوى الحال من قصيدة:

إِلَيْكَ رَفَعْنَا الأَمْرَ يَا مَانِعَ الأَذى
فَقَدْ هَالَنَا حِزْبُ الغُوَاةِ بِمَا أَبْدَى

تَمَالأَ أَهْلَ الكُفْرِ عَنَّا بِقُوَّةٍ
وَلَم يَرْقُبُوا لِلظُّلم إِلاًّ وَلاَ عَهْدا

إِذَا عَلِمُوا مَنْ يَنْتَمِي لِمُحَمَّدٍ
تَرَاهُم لِفَرْطِ الغَيْظِ فِي حَرْبِهم أُسْدَا

وَمَا أَنْ يَرَى لِمُسْلِم مِن كَرَامَةٍ
وَإِنْ كَانَ طُولَ الدَّهْرِ يَخْدُمُهُم عَبْدَا

تَرَاؤوا بِعَدلٍ فِي القَدِيم بِخِدْعَةٍ
فَلَمَّا أَتُوا نِلْنَا المَهَانَةَ والنَّكَدا

بِـهَـضْـمٍ وَشَـتْـمٍ فِـي الـعِـبَادِ وَرَبِّـهـا
فَمَا عَظَّمُوا جَمْعاً وَلَا رَحِمُوا فَرْدَا
كَـأَنَّـهُـم قَـدْ وَكِّـلـوا بِـمَـهَـانَـةٍ
لِمَن فِي سَبِيلِ الحَقِّ يَتْبَعُ الرَّشَدَا
وَمَـا فِـي سَـجَـايَـا الـرُّوم عَـفْـوٌ وَعِـفَّـةٌ
وَلَا يَبْذِلُونَ الوُسْعَ فِي الحُلْمِ والجُهْدا
وَحُـوشٌ إِذَا تَـظْـفَـر يَـدَاهُـم وإن تَـخِـب
تَرَاهُم كَذِيبِ الغَابِ يَلْتَمِسُ العُودا
أَسَـأنـا بِـفِـعْـلِ الـذِّيـبِ جَـهْـلاً وَغَـفْـلَـة
بِجُودِكَ أَرْجُو أَنْ تُمْحَى وأَن أُهْدَى
إِلَـيْـكَ سَـأَلْـنَـا الـعَـفْـوَ والـصَّـفْـحَ مِـنَّـةً
كَمَا قَدْ رَجَوْنَا النَّصْرَ والعِزَّ والرَّفدا
بِـذُلِّـي وَفَـقْـرِي قَـدْ رَجَـوْتُ إِجَـابَـةً
لِتَكْشِفَ بَلْوَايَ وَتَمْنَحَنِي البُعدا
فَـقَـدْ طَـالَ مَـكْـثِـي بِـالـبِلادِ وإِنَّـنِـي
لَأَعْلَم أَنَّ الجِنْسَ مِن أَبْغَضِ الأَعْدا
مُـرَادُهُـمْ نَـيْـلُ الـرَّفِـيـعِ إِهَـانَـةً
وَأَن يَجْعَلُوا لِلْكُفْرِ فِي شَرْعِهِم مَجْدا

فَـطـنـتُ وَقَـلْـبِي كَـارِهٌ لِـوِصَـالِـهِـم
وَهَلْ يُؤلَفُ الخَبُّ اللئيم وَإن أسْدَى
تَـكَـبَّرتُ عَـنْـهُـمْ رَاجِـيـا أن كَـيْـدَهـم
يَـعُـودُ هَـبَاءً والـخِـسَـارة قَـدْ تُـفْـدَى

وقد كتب على قوله وتمنحني البعدا يعني منهم. وله من قصيدة يتأسف على فراق المدينة:

لَهْفُ نَفْسِي عَلَى سُعُودِ رجالٍ تَنْظرُ الجُودَ من سَمَاءِ الوُجُودِ
لَـهْفُ نَفْسِي عَـلَـى بِقَاعِ رُبَاهَا مَـهْبِطُ الـوَحْـي لِـلـنَّـبِي الـوَدُودِ
أَزِفَـت رِحْـلَـةُ الـنَّـوَى فَـدَعَـانِـي بَـاعِـثُ الشَّـوقِ مُـرْشِـداً لِـلـقُـعُـودِ
كَـيْـفَ يَـسْـعَـى إِلَـى لَظَى ذُو ذَكَـاءٍ بَـعْـد أن كَـانَ فِـي جِـنَـانِ الـخُـلـودِ
هَـذِهِ طَـيْـبَـةَ تُـنَـادِي جَـهَـارا مَـنْـهَـلِـي الـعَـذْبُ سَـائِـغٌ لِـلْـورودِ
إنَّ مَـنْ يَـعْـشَ عَـنْ هَـواهَـا وَيَـصْبُو لِـسِـوَاهَـا لَـبِـضْـعَـةُ مِـن ثَـمُـودِ

وله من قصيدة نبوية:

خُـذُوا وَاقْـبَـلُـوا هَـذَا الـمَـعِـيبَ بِـفَـضْـلِـكُـم
فَـغَـيْـرُكُـم لا يَـقْـبَـلُ الـعَـيْـبَ وَالأَدْنَـى
فَـأَنْـتُـم كِـرَامُ الـعَـالَـمِـيـنَ وَمَـنْ يَـرَى
بِهِ البَعْضُ مِنْكُم فَهُوَ مِنْ ذَلِكَ المَغْنَى
عَـلَـى الـحُـبِّ مَـا عِـشْـنَـا وَنَـسْـأَلُ رَبَّـنَـا
دواماً عَـلَـى حُـبِّ الـحَـبِيـبِ وَإِنْ مُـتْـنَـا

لَـهُ الـحُـكْـمُ فِـي أَبـدانِـنَـا وَنُـفُـوسِـنَـا
وَمَا شَاءَ مَحْبُوب الغَـرَامِ فَقَدْ شِئْنَا
فَـمَـنْ لَـمْ يَـكُـنْ يَـهْـوَى الـرَّسُـولَ وَحِـزْبَـهُ
وَيَـعْـلَـمُ أَنَّ فِـي الـمَـحَـبَّةِ مَا يُـجْـنَى
مُـصَـابٌ عَـلَـيْـهِ الـمُـوبِـقَـات تَـرَاكَـمَـتْ
وَقَـدْ نَـالَ مُـقْـتـاً بَـالـبُـعَـادِ الَّـذِي أَفْـنَـى

وأشعاره كثيرة وقفت على جملة صالحة منها ومكانته في العلم أشهر من أن تعرف وتآليفه نظماً ونثراً مطبوعة مشهورة لا حاجة إلى التنويه بها.

هؤلاء هم الأمراء الأشراف الذين روي لهم شعر من نظمهم... وأما من هم مظنة قول الشعر ولم نقف على شيء من نظمهم فكثير مثل السلطان مولاي رشيد أول من مهد ملكهم وقضى على المنازعين لهم وكان على جانب من العلم والأدب محباً لأهل الفضل مختصاً بمجالستهم كثير الإحسان إليهم... فحكي أن العلاّمة أبا عبد الله محمد المرابط الدلائي حضر يوماً بمجلسه وذلك بعد الإيقاع بزاويتهم وتغريبهم إلى فاس فأنشد السلطان معرضاً بالمذكور قول أبي الطيب المتنبي:

وَمِنْ نَكَدِ الدُّنْيَا عَلَى الحُرِّ أَنْ يَرَى عَـدُواً لَـهُ مَـا مِـن صَـدَاقَـتِـهِ بُـدُّ

ففهم أبو عبد الله المرابط إشارته فقال أيد الله أمير المؤمنين أن من سعادة المرء أن يكون خصمه عاقلاً فاستحسن الحاضرون حسن بديهته

ولطف منزعه وفي الحكاية دليل على أدب السلطان ومعرفته بالشعر لحسن إيراده لهذا البيت وموافقة تمثله به لواقع حال المرابط الدلائي.

وهذا السلطان هو الذي أجاز أحد أدباء الجزائر بألفي دينار على بيتين من الشعر مدحه بهما وهما:

**فَاضَ بَحْرُ الفُرَاتِ فِي كُلِّ قِطْرِ مِنْ نَدَى رَاحَتَيْكَ عَذْباً فُرَاتَا**

**غرق الناس فيه فالتمس البخلُ خلاصاً فلمْ يجدْهُ فماتا**

ومثل السلطان سيدي محمد بن عبد الله واسطة عقد هذه الدولة في التدبير والحزم والسياسة والحلم والرأي والفهم والفقه والعلم وهو ممدوح ابن الوقان بقصيدته الشمقمقية المشهورة وكم كان يحرص على نشاط الحركة العلمية والأدبية في بلاده وهو صاحب فكرة تنظيم القرويين وتجديد طرق الدراسة بها مما لو استمر العمل به منذ زمانه إلى الآن لأتى بنتائج باهرة للعيان وله مع ذلك تآليف فذة في الحديث والفقه معروفة.

ومثل السلطان العادل العالم مولاي سليمان فإن له آثاراً نثرية مهمة من خطب ورسائل وتآليف لا يبعد معها أن يكون له شعر.

ومثل السلطان المقدس مولاي الحسن فإنه كان عن جانب من العلم والأدب وتصدر عنه التوقيعات المليحة كتوقيعه للطلبة وقد كتبوا إليه يستأذنونه في إقامة نزهتهم قبل الأبان وهو بفاس عسى أن يحضرها فوقع لهم (حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وأزينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا) وتوقيعه لأهل فاس لما رفعوا

إليه اعتذارهم عما كان منهم من الشغب قائلين أن ذلك من فعل السفهاء فوقع (السفيه إذا لم ينه فهو مأمور).

ونقف هنا ونترك المجموعة مفتوحة لضم أشعار النابغين من أمراء دولتنا العلية في المستقبل فإن مرور الزمن عليها لا يزيدها إلا فتوة... نسأل الله تعالى أن يبقيها على الدوام رافعة لراية العروبة والإسلام في هذا الوطن العزيز.

# تكميل

بعد ختم الكتاب وتقديمه للحضرة الخليفية الكريمة، أطلعنا على طرفة أدبية جميلة خليقة بأن نجعلها مسك الختام في هذا المقام وهي الخطاب الذي وجه به نقيب الأشراف العلويين بمكناس العلّامة الأديب الكبير مولاي عبد الرحمن بن زيدان إلى حضرة صاحب السمو مولانا الخليفة المعظم وما أجابه به على لسان صاحب السمو معالي وزير الأوقاف العلّامة الأديب البليغ السيد محمد بن عبد القادر ابن موسى ونص الخطاب:

خَلِيفَةَ عَرْشِ مَغْرِبِنا المُفَدى ... وَبِضْعَةُ بَيْتِ مَمْلَكَةٍ سَمَى

عَلَى القدر أَعْنِي أَبَا عَلِي ... وَرَبٍّ الفَضْلِ وَالخَلْقِ الزَّكي

وَمَنْ أَضْحَتْ شَمَائِلُهُ كَرَوْضٍ ... أَرِيْضٍ فَاحَ بِالأَرَجِ الذَّكِي

تُحَدِّثُنا الرَّكَائِبُ عَنْهُ خَيْراً ... وَتُنْبِئُ كَيْفَ حَالَ الأَلْمَعِي

وَتُبْدِي لِلْمَحَاسِنِ مِن حَلاهُ ... وَتُخَبِرُنَا عَنِ الشَّرَفِ البَهِي

عَلَيْكَ سَلامُ رَبِّي وَالتَّحَايَا ... يَنُمُّ كَبَاهَا كَالمِسْكِ الشَّذِي

وَبَعْدَ فَكَمْ طَمِحْتُ إِلى مَزار ... بِهِ (حُسْنُ) المَآثِرِ والسَّمِي

وَلَــمَّــا لَــمْ تَــفِ الأَقْــدَارُ مِــنْــهُ عَــلَــى شَــوْقٍ شَــدِيــدٍ بِــالــقَــصِــي
بَــعَــثْــتُ إِلَــيْــكَ مِــنِّــي بِــالــتَّــحَــايَــا تَــحَــايَــا الــخِــلِّ لِــلــخِــلِّ الــصَّــفِــي
يَــهُــبُّ مَــعَ الــصَّــبَــا فِــي كُــلِّ صُــبْــحٍ وَيَــحْــمِــلُــهَــا نَــسِــيــمٌ بِــالــعَــشِــي

قد كان روع البال وهيج البلبال ما سمعناه من انحراف طرأ عليكم في المزاج أزعجنا والله غاية الإزعاج في حال كنا فيه سواسية في المرض، واعتراض داء عرض لم يمكني معه تحريك يراعة ولم يسعني إلا مد كف الضراعة لمن يكشف الأسواء وينزل الدواء وليس ﴿إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾﴾ [الشعراء: 77] فما هو إلا أن حف الجميع بالطافة الخافية وأسبل على الكل رداء العافية منن منه سبحانه تترى فحمدا لله وشكرا ثم زاد في سروري ومضاعفة حبوري تحقيق أمنية كانت في سر الخفاء مطوية لم تبرزها الأقدار إلا في هذا المضمار وهي ما نعلمه من مولانا ونعمة الله التي أولانا مفخرة الأجيال والعصور سيدنا الإمام المنصور أبد الله نصره وزين بأمثالكم نخبة أقاربه عصره وهي محبتكم الخاصة التي كان لا يعلمها إلا الخاصة فبادروا ما ونى وأظهرها علنا بإيفاد وفد من أعيان عصره وخواص قصره فكان خير وفادة في واجب العيادة تنويهاً بقدركم المنيف وزيادة رفعة لمكانكم الشريف ثم آب وكله السنة شاكر وثناء عاطر مما رأى من الأياد والكرم المعتاد وحسن شيم شنشنة أعرفها من أخزم فتضاعف لنا السرور وأثلج ذلك النبأ

منا الصدور فالله تعالى يعلي مناركم ويدني في أطيب الساعات مزاركم ويبقيكم في خصب العيش ومربعه وبين مرأى الله ومسمعه وعلى خالص الولاء المستدام والمحبة والسلام في فاتح المحرم الحرام فاتح عام 1361.

وهذا نص الجواب:

خَطِيْبُ الدَّهْرِ فَاجَأَ بِالفَرَى ... وَقَامَ عَلَى أَنَامِلِ شُمَّرِي

يَفِيضُ عَلَى النُّهَى إِعرابُ كَعْبِ ... وَيَسْلِبُهَا بِلَحْنِ البُحْتُرِي

إِذَا أَجْرَت شِعَابَ الفِكْرِ شَوْطاً ... جَرَى الوَادِي فَطَمَّ عَلَى القَرِي

وإِن أَشْجَت رَقَائِقُه بِشَدْوٍ ... فَيَا وَيْحَ الشَّجَى مِنَ الخَلِي

الآن بَيَانُهُ شَرْدِ القَوَافِي ... فَأَفْرَغَهَا بِطَبْعٍ جَوهَرِي

وَأَبْرَزَهَا خَرَائِدُ سَافِرَاتٍ ... وَفَصَّلَهَا فَرَائِدٌ فِي حِلِي

فَأَمَا أَشْرَقَتْ فِي السَّمْعِ دُرًّا ... وَنَزَّهْتُ النَّوَاظِرَ فِي غَرِي

فَمَا زَهرُ الخَمَائِلِ فِي زَهْوٍ ... وَلَا قَدُّ الحِسَانِ بِسَمْهَرِي

أَدَارَ بِهَا عَلَى الأَحْبَابِ كَأساً ... تَمُتُّ إِلى الرَّحِيقِ بِسُكَّرِي

فَأَوْثَقَ مِن أَعِنَّتِهَا عَصِيباً ... أَبُو زَيْدِ بِنِ زَيْدَانَ السَّرِي

عَلَيْهِ مِنَ التَّحِيَّةِ أَلْفَ أَلْفٍ ... تَطِيبُ مَع السَّلام العَنْبَرِي

يَهُزُّ بِهَا النَّسِيمُ رِدَا أَخِيهِ ... (عَبِيرِ الآس) مِن فَردِ جَرِي

يَقُومُ بِهِ الطَّمُوحُ إِلى مَزَارٍ ... وَيُقْعِدُهُ القُصُورُ عَنِ اللُّقِي

| | |
|---|---|
| فَـبُتُّ مِـنَ الـتَّـشَـوُّقِ مَـا أَجَـدْتَ | وَشَـائِـجِـه الـسُّـرَارة بِـالـسَّـوِي |
| وَقَـدَّمْ عُـذْرَهُ والـعُـذْرُ فَـجْـرٌ | يَـذُودُ الـشَّـكَّ بِـالـصُّـبْـحِ الْـجَـلِـي |
| وَأَعْـلِـن كَـامِـنِ الإشْـفَـاقِ مِـمَّـا | أَراحَ بِـكَـشْـفِـه لُـطْـفُ الـوَلِـي |
| وَأَخْلِص فِي الدُّعَاءِ بِظَهْرِ غَيْبٍ | يُـرَوِّحُـهُ بِـقَـصْـدٍ أَرْيَـحِـي |
| أَلا الله مَـا صَـنَـعَـتْ رُقَـاهُ | بِـمَـا أَفْـرَغْـنَ فِـي سَـمْـعِ الـنَّـجِـي |
| وَمَـا أَبْـدَيـنَ مِـنْ سِـحْـرٍ حَـلَالٍ | وَمَـا أَصْـفَـيْـنَ مِـن وُدٍّ وَفِـيّ |
| لَـئِـن حَـلَّاهُ مَـانِـحُـهُ بِـلُـطْـف | وَأَوْرَثَـهُ الـفَـضَـائِـلَ عَـنْ عَـلِـيّ |
| وَمَـلَّـكَـهُ رِقَـابَ الـقَـوْلِ فَـصْـلا | وأَيَّـدَهُ بِـفِـكْـرٍ أَلْـمَـعِـي |
| وَجَـرَّدَهُ لِـتَـاجِ الـمُـلْـكِ عَـضْـبـاً | يُـنَـافِـحُ عَـنْ حِـمَـاهُ الـعَـبْـقَـرِي |
| فَـكَـمْ سَـارتْ مَـآثِـرُهُ بِـشَـرْق | وَكَـمْ جَـالَـتْ بِـقُـطْـرٍ أَعْـجَـمِـي |
| وَكَـمْ ظَـهَـرَتْ ظُـهُـورَ الـشَّـمْـسِ رُوداً | تَـرُودُ الـحَـقَّ بِـالأَمَـدِ الـقَـصِـي |
| وَكَـمْ سَـفَـرَتْ وَبِـالأَلْـطَـافِ لِـيـنٌ | وَكَـمْ لله مِـن لُـطْـفٍ خَـفِـي |

تلقينا من كتابكم المحيط بأطراف الإبداع الجامع بين بهجة الأبصار ولذة الأسماع ما يتلقاه الظمآن من العذب الزلال ويستشعره الطبع السليم من روائع السحر الحلال أشرقت المحاسن من أفق شرفاته ووقفت الأبصار بعرافته فأحلها الرياض النضرة بين يمن ياءاته وأنس إلفاته فإن اعتدل المزاج ببركة آياته المتلوة وتحقق العلاج من أنفاسه الطيبة ونفائسه المجلوة فما هو إلا أثر من آثار علم أعلام

عصره والحجة البالغة على الأمصار لأبناء مصره الحال من عمود النسب الشريف بين سحره ونحره ومن البيت الكريم المالك ما بين المطف والرعاية من أفياء قصره:

**وَهَلْ يُنْبِتُ الخُطَى إلا وَشِيجُهُ وَتُغْرَسُ إلا فِي مَنَابِتِهَا النَّخْلُ**

حرس الله به للفصل كماله وللنبل خلاله وللشرف الرفيع ما يقيم فروضه ويؤيد أنفاله والسَّلام عليه ورحمة الله وفي 18 صفر الخير عام 1361.

# الفهرس